
الإمام الجليل
محمد أبو زهرة
٥٠

خلاف فيه عندهم؛ ولذا أمر الله تعالى نبيه بأن يتولى هو الإجابة، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ لأنهم يقرون بذلك ولا ينكرونه؛ ولأن ذلك بدهى فى ذاته؛ إذ لم تكن فيهم انحرافات الفلاسفة الذين يقولون فيها بالعلة والمعلول. ولم تكن فيهم خرافات المصريين فى عهد الفراعنة؛ ولذلك أمر نبيه أن يجيب عنهم، ثم أمره سبحانه أن يسألهم عن شركهم لماذا يكون مع اعتقادهم أن خلق السموات والأرض لله تعالى وحده، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... (٦١)﴾ [العنكبوت].

أمره الله تعالى أن يسألهم ما رتبوه على هذا الاعتقاد، وهو نقيضه، ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والهمزة للاستفهام، وقدم على الفاء؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام للتوبيخ أو التهكم، والمعنى: فقد رتبتم على قولكم: إن الله خالق السموات والأرض أن اتخذتم أولياء أو نصراء لهم ولاؤكم كأنهم آلهة غير الله تعالى ودونه فى العقول عند كل المعقول، وتركتم من خلق وحده، وبدل أن تعبدوه عبدتم ما لا يملك لنفسه نفعًا وإن أراده، ولا ضرا إن أراد دفعه، ومن لا يضر نفسه ولا ينفعها، فبالأولى لا يضر ولا ينفع غيره، فلا يرجى خيره، ولا يدفع شره إلا ما يكون فى أوهامكم، وإن هذا التوبيخ يتضمن التوجيه إلى الوحدانية والبعد عن الشرك بالدليل القاطع المانع.

ولقد بيّن سبحانه ما تنكره العقول فى هذا النحو من التفكير، وأمر الله تعالى نبيه أن يوجه إليهم الأسئلة ليتنبهوا إلى بطلان ما هم فيه، ومناقضته لاعتقادهم أن الله خالق كل شىء ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ هذا الاستفهام إنكارى فى الاثنين، وهو توبيخى، وفيه معنى التهكم، هل يستوى الأعمى الذى لا يرى بالبصير الذى يرى الأشياء، وإنكم قد أبصرتم الحق بإقراركم أن الله خالق السموات والأرض، فأقررتم بأنه الخالق، ومع

ذلك عبدتم ما لا يملك جلب خير لنفسه، ولا دفع ضر لها، فلا يستويان، كما لا يستوى الأعمى والبصير، والظلمات والنور.

و(أَمْ) فى قوله ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ للإضراب الانتقالى، فينقل الله نبيه من السؤال عن استواء الأعمى والبصير إلى السؤال عن استواء الظلمات والنور.

وينتقل آمرا نبيه بأن يسألهم سؤالا إيجابيا عن الخلق عساهم يشركونهم فى الخلق بدل التوحيد الذى قرروه من قبل فقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ (أم) هنا للإضراب الانتقالى، وهو استفهام إنكارى لإنكار الواقع، أى توبيخ لهم لأن حالهم فيها إنكار؛ لأن الله خالق كل شىء، إذ إنهم يؤمنون بالأوثان كإيمانهم بالله أو أشد، فحالهم حال من جعلوها شركاء لله تعالى فى خلقه وإنشائه للوجود، حتى تشابه الخلق عليهم، فحسبوا أنهم خلقوا كما خلق.

والخلاصة أن حالهم ليست حال من يعتقد أن الله تعالى خالق الوجود وحده سبحانه؛ لأنهم يشركون بل يفردون الأوثان بالعبادة.

ولذا أمر الله تعالى نبيه أن يؤكد أنه سبحانه وتعالى خالق كل شىء وحده، ولذا قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الله تعالى هو الخالق لكل شىء ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى الواحد الأحد الفرد الصمد القاهر الغالب لكل شىء، وهنا إشارة بيانية وهى قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ معناها أن ذلك مثل جعلوه، وزعم زعموه، وهو أنهم شاركوا الله فى الخلق، ولم يستطيعوا تمييز عمل أوثانهم عن عمل الله، فتشابه الخلق عليهم، ولم يميزوا بينها.

وإن ذلك الفرض أخذ من حالهم فى عبادة الأنداد مع إقرارهم بأن الله تعالى خالق كل شىء سبحانه وتعالى. وبعد أن بيّن سبحانه وتعالى إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض، ومناقضة حالهم لهذا الإقرار ـ بين سبحانه فضله الدائم المستمر المثبت لربوبيته الكاملة فقال تعالت كلماته:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها: أولا: بيان نعمة الله تعالى على الناس، فيما ينزل من ماء يجرى فى الأودية والأنهار فينتفع به الناس آمادا، يأمنون فيها على أنفسهم وزرعهم وضرعهم من العطش الشديد، والجدب، وضياع الحرث والنسل. وفيها ثانيا: نعمة الله تعالى عليهم فيما أودعه باطن الأرض من فلزات يوقدون عليها فتكون منها حليهم وأمتعتهم من أوان وأدوات حروب، ودفع لأعدائهم، وبذلك يكون منها متاع وحماية ودفاع.

وفيها ثالثا: وهو الذى سيق له القول ظاهرا، وهو ضرب المثل بالحق والباطل، فالحق هو الأمر الثابت الباقى الذى ينفع الناس، والباطل هو الزبد الذى يجيش الماء فيوجده كالرغوة لا تبقى، والذى يوحده الغليان فى الفلز فيظهر خبثا غير مفيد، والفلز يبقى من بعده خالصا ينفع الناس.

هذه خلاصة مقاصد الآية الكريمة السامية، بعضها بالقصد الأول، وبعضها بالقصد الثانى، وكلاهما فيه فضل الله واضح بين، بلا فرق بين ما سيقت له الآية قصدا، وما سيقت تبعا، فالجميع كلام الله تعالى مقصود كل معانيه أصليا وتبعيا.

ولنتكلم فى أجزاء الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ السماء هى العلو، والماء ينزل من المزن، وهى السحاب الثقال التى ذكر الله تعالى أنه ينشئها فى الآية السابقة، وتلك نعمة من الله أنعمها على الناس، نزلت من السماء على الجبال أو المرتفعات فتحدرت عليها المياه وسالت حتى كونت أودية وأنهارا، وهذا قوله تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾، الأودية جمع واد، وهو المكان الذى يجرى فيه الماء، وليست الأودية هى التى تسيل، إنما الذى يسيل هو الماء الذى يجرى فيها،

وأطلقت الأودية وأريد ماؤها من قبيل إطلاق المحل وإرادة ما يحل فيه، مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧)﴾ [العلق] أى أهل ناديه، وقيل: سالت الأودية وأريد الماء؛ لأن السيل شديدا عنيفا قد طم، حتى اختفت الأودية من شدته فصار الناظر لا يرى إلا المياه المتدفقة، وكان حكمه على ما يراه، لا على محله، وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ وقرئ بسكون الدال لا بفتحها، والمراد بمقدار ما يملؤها، وقيل: بما قدر لها من ماء يكفى الناس فى معاشهم وزرعهم وضرعهم، ويصح إرادة المعنيين، والنص يحتمل الجمع، ولا تعارض بينهما.

و(الزبد) ما يحمله الماء عند جريانه وجيشانه من أتربة وغيرها، وإن هذا بلا ريب يذهب ولا يبقى، بل أحيانا يكون رغوة يبددها الهواء، فهى كأزيز[1] الموج يصطخب ولا يبقى منه شيء.

ولقد قال تعالى توجيها لأمر آخر، وهو الفلز عندما يُفْتَن ليخرج ما فيه من خبث تعلق به من باطن الأرض فقال سبحانه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ (مما) مدلولها الفلزات من المعادن وهى القابلة للطرق والسحب أو التى تنصهر بالنار كالذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير وغيرها، و﴿فِي النَّارِ﴾ الجار والمجرور متعلق بمحذوف يفهم من القول، والمعنى: مما يوقدون عليه ملقى فى النار، وقوله: ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ أى مما يلقى فى النار الموقدة بقصد طلب حلية كالذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾، أى أمر ينتفع به كالأوانى، وأدوات الحروب وغير ذلك ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾، أى أن خبث الفلزات يكون كالزبد الذى يجيء من إثارة الماء للتراب واصطخاب الأمواج.

والجُفاء هو ما يلقيه السائل بعيدا ليصفو، وذلك من قولهم جفأه السيل، وقد مثل الله تعالى المهتدى بالبصير، والضال بالأعمى، والعبادة الحقة بالنور، والباطلة بالظلمات فى الآية السابقة. وفى هذه الآية مثَّل الحق بالماء الذى ينزل من

---

(١) الأزيز: كل صوت يأتى من شدة الحركة، فيقال أزيز الموج، وأزيز الطائرة، وأزيز النحل، لذلك.

السماء فتسيل منه أودية مختلفة تأتى بالزروع والثمار مناوبة، ولذا نكر أودية، وشبه الحق بالفلز الخالص، والزبد الذى يكون فى حال جيشان الماء، ويكون من إيقاد النار على الفلز، أى شبه الباطل بهذا الزبد الذى لا يبقى، بينما الماء والفلز الخالص يبقيان نافعين دائمى النفع ووجه الشبه بين الحق، والفلز والماء، أنها مفيدة دائما، وباقية لغذاء الإنسان، ومتاعه وحليه، وأنها جوهر صالح. ووجه الشبه بين الباطل والزبد، أولا: أنه لا بقاء لهما، ثانيا: أنهما لا حقيقة لهما، وثالثا: أن السلامة فى الخالص منهما.

ويصح أن يكون التشبيه تشبيها تمثيليا، بأن يشبه حال الحق فى بقائه ودوامه بالماء والجوهر الصافى من حيث النفع والبقاء والدوام، ويشبه حال الباطل من حيث إنه لا حقيقة له، وإذا كانت له حقيقة فهو خبث تجب إزالته وتطهير الجسم النافع، شبه حال الباطل بالزبد الذى يكون من الماء، أو يكون من إيقاد الفلز فى النار؛ لأنه لا حقيقة لها، وإذا كانت لها حقيقة فهى خبث يجب زواله.

وقد قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ كذلك يبين الله الحق والباطل فيشبه الحق بالماء والفلز ويشبه الباطل بالزبد، وقد بين سبحانه وجه الشبه، فقال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ وقد ذكر فى الأول المشبه به لتأكيد ذهاب الباطل، وفى الثانى ذكر المشبه وهو الحق لبيان بقائه ونفعه وثباته، وأن النهاية دائما له ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ... (٨)﴾ [الأنفال]، وقد ختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾.

والإشارة إلى بيان مثل الحق بالماء والفلز، ومثل الباطل بالزبد الذى لا يبقى، والمعنى كهذا المثل الذى بين الله تعالى به الحق والباطل يبين الأمثال المشابهة، ويبين المعانى الجلية، والحقائق الثابتة، ويهدى بها من يشاء من عباده.

المؤمنون الذين يستجيبون لله

قال الله تعالى:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

بعد أن ضرب الله تعالى الأمثال للحق، وبين الدلائل المبينة الدالة على عبادة الله وحده لا شريك له من أنداد وأوثان، أو أحد من خلقه، وضرب الأمثال للحق والباطل، بين سبحانه وتعالى من يستجيب للحق وجزاءه، ومن لا يستجيب، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ الحسنى هو مؤنث أحسن، وليس أفعل التفضيل على بابه هنا، بل المراد الحال البالغة أقصى درجات الحسن ونهايته التى لا غاية فى الحسن بعدها. و(استجاب) معناها أجاب، ولكنها فى أصلها طلب الإجابة؛ لأن السين والتاء للطلب، والمعنى: للذين أجابوا دعوة ربهم الذى خلقهم، وقام على شئونهم الجزاء الأحسن الذى لا حسن بعده.

هذا جزاء الذين استجابوا لدعوة الحق ولربهم رسوله، أما الذين لم يستجيبوا لربهم ولم يلبوا دعوته إلى الحق وعدم الشرك فلهم السوءى، أى أسوأ الأحوال التى لا نهاية بعدها فى السوء. ويلاحظ أن الذين استجابوا جعل استجابتهم لربهم، والذين لم يستجيبوا لم يذكر فى النفى أنها لربهم، وذلك لسببين:

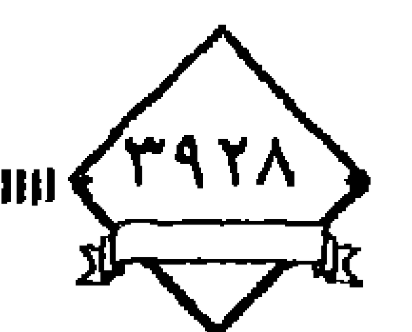
السبب الأول: أن عدم ذكر ذلك لعدم التكرار، والتكرار فى الأمر مذموم فى ذاته غير مقبول.

والسبب الثاني: بيان أنهم ليس من شأنهم أن يستجيبوا لحق، فقد طمس الله على قلوبهم، وعلى أعينهم غشاوة ولا يبصرون.

وقد ذكر الله الجزاء الذى يقابل الحسنى بقوله تعالى: ﴿**لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ**﴾ وهذا يدل على أنه عذاب عظيم يحاول من ينزل به الخلاص منه، وأنه لا يخلص منه إلا بفداء عظيم يساوى الفداء منه كل ما فى الأرض من أموال وأعراض ومتع ومناصب وجاه، فكان له كفاء، ومعنى ﴿**لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ..**﴾ إلى آخره لو ثبت أن لهم كل ما فى الأرض من ملاذ وشهوات جميعا غير منفرط منه شيء، لافتدوا أى رضوا أن يقدموه فداء له، فما فى الأرض إن كانوا يملكونه يقدمونه.

و(لو) حرف امتناع لامتناع، أى امتنع عليهم الافتداء؛ لأنهم لا يملكون ما فى الأرض جميعا.

ولقد صرح سبحانه بأنه سوء فى ابتدائه وانتهائه، فقال تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ وسوء الحساب أنه شاق يسوء فى نتائجه لا تخفى فيه خافية. بل يحاسبون حسابا عسيرا شديدا فى شكله وغايته، وقد ذكره سبحانه وهو الإلقاء فى الحميم. و(المأوى) ما يأوى إليه الإنسان يتقى به الحر والبرد، والمأوى الذى يأوون إليه فى الآخرة هو جهنم، وهى بئس المهاد، و﴿**الْمِهَادُ**﴾ جمع مهد وهو الفراش الذى يفترشه لينال به الراحة والقرار، ولكنه



فى الآخر ليس للراحة ولكن للعذاب الدائم ﴿ ... أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾ [البقرة].

وقد أخذ يبين ـ سبحانه ـ الفرق بين جزاء الذين استجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا، فبين سبحانه أنه العدل الذى لا يدخله شىء من الضير، وغيره هو الظلم، فقال تعالى:

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) ﴾.

هذا النص الكريم لتأكيد الفارق بين جزاء المتقين وجزاء الذين لا يستجيبون للحق ولا يذعنون، والاستفهام هنا إنكارى، لإنكار الوقوع، أى أنه لنفى التشابه بين من يعلم الحق، ويذعن له، ويؤمن به، ومن يعرض عن الحق ويترك الآيات الدالة على الحق المبين وكأنه الأعمى الذى لا يبصر، إذ عدم البصيرة كعدم البصر على السواء.

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه يترتب على اختلاف الجزاءين تقرير أن التشابه بينهما غير ممكن، وأخّر الفاء عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة كما ذكرنا من قبل.

لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، أفيستوى الذين يعلمون ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾. والمراد بالذى ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ القرآن، وذكر بهذا الموصول ليكون متضمنا الحكم، وهو أنه الحق لأنه أنزل إليك من الله الذى خلقك ورباك وأيدك، فلابد أن يكون الحق، وتعريف الطرفين يدل على القصر، أى أنه لا يمكن أن يكون إلا حقا، ولا يمكن أن يكون فيه باطل قط ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ... (٤٢) ﴾ [فصلت]، وقوله تعالى: ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾ المراد من لا يصدق أنه الحق، كأنه كالأعمى، إذ إنه أعرض عن الآيات الشاهدة بالصدق، وأنه المعجزة الكبرى، والآيات الدالة على أن الله واحد

أحد فرد صمد، وقد خلق كل شيء وقدره تقديرا، فاستعير لفظ الأعمى لمن أعرض عن ذكر ربه وأنكر آياته كأنه لم يرها. وإن فَقْد البصيرة كفقْد البصر على سواء.

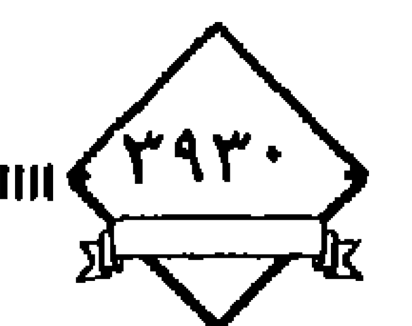
ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ (إنما) أداة من أدوات القصر، أى لا يتذكر إلا أولو الألباب، أى العقول التى تدرك لُبَّ الأمور، وخواصها، وما تدل عليه من غير شائبة تقليد، ولا اتباع لغير المؤمنين، و(أولوا) أى أصحاب الألباب، ومعنى التذكر إدراك الآيات، وكأنها لا تحتاج إلى تعرف جديد؛ لأن أصلها فى الفطرة.

وقد بين سبحانه وتعالى القول فى أوصاف أولى الألباب، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠)﴾. هذا هو الوصف الأول من أوصاف المؤمنين أولى الألباب.

يصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالوفاء بالعهد، وما بعده من أوصاف.

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ [البقرة].

فالوفاء بالعهد من صفات المؤمنين، ومن خصال الإيمان؛ وذلك لأن الوفاء يقتضى أن تصدق النفس فى ذاتها وأن تدرك ما يجب فى حق النفس، ويشعر المرء بالمعادلة فى الحياة بينه وبين الناس، يشعر بحقهم عليه كما يطالبهم بحقه عليهم؛ ولذا كان علامة من علامات الإيمان. وكان خُلف العهد علامة من علامات النفاق؛ لأن المنافق يحسب أن الناس خلقوا له يستغلهم ولا يعطيهم، يأخذ منهم ولا يقدم لهم.



والعهد أُضيف إلى الله تعالى، كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ... (٩١)﴾ [النحل].

والعهد سواء أكان مضافا إلى الله تعالى أم كان مضافا إلى العبد واجب الوفاء؛ لأنه من أمر الله، والنقض من أمر الله تعالى، فمن أوفى بعهده للناس فقد أوفى بعهد الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ... (١)﴾ [الأنعام].

والعهود تشمل التكليفات الشرعية كلها فهى عقود الله تعالى على عباده، وتشمل العهود التى عُقدت موثقة بيمين سواء أكانت نذورا أم كانت عهودا للناس، وثقها على نفسه بيمين الله تعالى، فالوفاء بها من الإيمان، ويشمل العهود التى يعقدها مع الناس ولو لم يذكر فيها يمين لما ذكرنا؛ لأن الشعور بالوفاء شعور بالمبادلة الاجتماعية بينه وبين الناس فى الحقوق والواجبات، وبذلك يكون الاجتماع المستقيم القائم على هدى رب العالمين.

وأكد الله تعالى الوفاء بذم نقيضه، فقال تعالى: ﴿وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾، و(الميثاق) وهو ما وثق من العهود بيمين الله أو غيره، و(أل) فيه للعهد، وقد ذكر الميثاق على بنى إسرائيل وهو ميثاق الله تعالى الذى حمله الأنبياء، وقد بينه الله تعالى على بنى إسرائيل فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣)﴾ [البقرة].

هذا ميثاق الله تعالى على عباده أجمعين، جاء على لسان الأنبياء الأكرمين، ولكن ذكر مع بنى إسرائيل لأنهم أشد الناس مخالفة له. وقد أمر به فى القرآن أمرا، فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦)﴾ [النساء].

هذا ميثاق النبيين،وهو يقوم على القيام بحق الله تعالى، والقيام بحقوق العباد التى أكدها الله سبحانه وتعالى بأمره، وهذا المثياق هو ميثاق الجماعة، وميثاق العدل الاجتماعى الكامل.

الوصف الثانى والثالث والرابع من أوصاف الإيمان:

قال تعالى فيه: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ﴾.

وذكر الله تعالى لهم ثلاثة أوصاف: وصف يتعلق بالصلات الاجتماعية التى بها يقوم بناء اجتماعى سليم يبتدئ من الأسرة بمعناها الممتد الذى يشمل القرابة جميعها قريبة كانت أم بعيدة، ويشمل المجتمع الصغير، ومجتمع المدينة، ثم الدولة، ثم المجتمع الإنسانى، وهذا هو الوصف الأول ﴿ الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾، والوصف الثانى نفسى، وهو أساس البناء الاجتماعى الفاضل، ورمز الله تعالى إليه بقوله تعالت كلماته: ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾، أى يخافون الله تعالى فى كل عمل يعملونه، فلا يطغون، ولا يظلمون، ولا ينقصون الناس حقوقهم، فمن خشى الله تعالى يتذكره فى كل عمل يعمله فى ذات نفسه، وفى أهله وبينه وبين الناس.

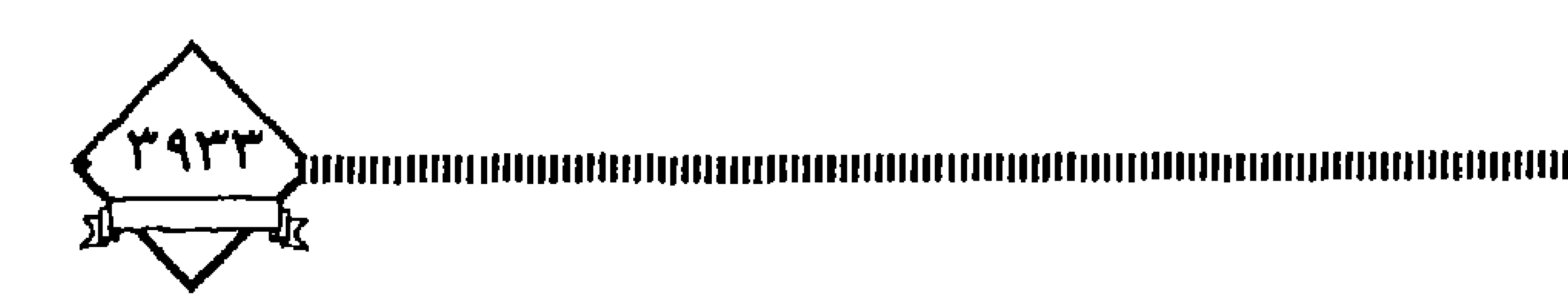
والوصف الثالث: الإيمان بأنه يحاسب عليه، وقد ذكره سبحانه بقوله تعالى: ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾، وخوف الحساب يتضمن الإيمان بالبعث والنشور، ولقاء الله تعالى يوم القيامة أولا، وأنه سيحاسب على ما كان فى الدنيا ثانيا. ويتضمن ترجيح الخوف على الرجاء، وأنه يخشى السوء قبل أن يرجو الثواب. ثالثا: فهو يستقل ما قدمه من خير، ويستكثر دائما ما وقع فيه من هفوات، وهذا شأن الأبرار، يستقلون ما يفعلون من خير، ويستكثرون ما يقع منهم من هفوات.

ولنذكر كلمات موجزة عن هذه الصفات الثلاث:

فأما الأولى، فهى: أن يصلوا ما أمر الله به أن يوصل، فنقول: إن ما أمر الله به أن يوصل هو ما يتعلق ببناء المجتمع على المودة والرحمة، فيصل قرابته القريبة والبعيدة، فقد أمر سبحانه وتعالى بصلة الرحم، فقال: ﴿... وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ... (٧٥)﴾ [الأنفال]، وأمر على لسان رسوله بصلة الأرحام فى أكثر من حديث، وأمر بالصلة بين الناس بالتعاون فيما بينهم على الخير، فقال تعالى: ﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ... (٢)﴾ [المائدة]، ودعا إلى إقراء السلام على من عرفت ومن لم تعرف، وأمر بإغاثة المستغيث، وفك كرب المكروبين. فكل هذه صلات قد أمر الله تعالى بوصلها. ولقد جاء فى الكشاف للزمخشرى ما نصه: ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام والقرابات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله ﷺ، وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... (١٠)﴾ [الحجرات]، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، والنصيحة لهم وطرح التفرقة بين أنفسهم، وإفشاء السلام عليهم، وعيادة مرضاهم، وشهود جنائزهم، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر)[١].

وهكذا نجد من الأمر بأن يصل ما أمر الله به أن يوصل، أن يعملوا على رأب الصدع وجمع الوحدة، وإزالة الفرقة، وأن يحسنوا إلى الضعفاء والمساكين، وقد روى ابن كثير عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره، لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من الملائكة: إيتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، فتأمرنا أن نأتيهم فنسلم عليهم، فيقول: إنهم كانوا يعبدوننى لا يشركون**

(١) الكشاف للزمخشرى: ج ٢/ ٣٥٧.



بى شيئا، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع قضاءها»[1].

هذه صلة من أمر الله به.

وأما خشية الله تعالى فهى امتلاء القلب بالله، وخشية عقابه، ورجاء ثوابه، وأن يكون ذاكرا لله، شكورا لنعمه، راجيا قبول طاعته ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... (٢٨) ﴾ [فاطر]، فهم أعلم الناس به ذاتا، وصفات، وقدرا، وإكبارا.

ومنها خوف سوء الحساب، فهو خوف نتائج السر الذى كان فى الدنيا، والله غفور رحيم.

الوصف الخامس والسادس والسابع والثامن من صفات المؤمنين، وهو من مقتضيات الإيمان: الصبر، وما بعده، قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾.

ذكرت هذه الآية أربع خصال للمؤمنين، أولها: الصبر ابتغاء وجه الله تعالى، وإقامة الصلاة والإنفاق من رزق الله تعالى، ودرء السيئة بالحسنة.

أما الصفة أو الخصلة الأولى: وهى الصبر ابتغاء وجه الله، فإن معناها ضبط النفس عن الشهوات، وتسيطر على منازع النفس فتقوى الإرادة، وتكون الأهواء أمةً لها، ولا تكون سيدا عليه، وإن الصبر فى المصائب التى تنزل، والإصرار على الوقوف عند أمر الله تعالى ونهيه، ولقد فسر ابن كثير الصبر ابتغاء وجه ربهم بقوله: «الصبر عن المحارم والمآثم، فقطعوا أنفسهم عنها لله عز وجل ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه» وفسره الزمخشرى بقوله: «﴿صَبَرُوا﴾ مطلق فيما يصبر عليه من

---

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين من الصحابة ـ مسند عبد الله بن عباس (٦٢٨٢).

المصائب فى النفوس والأموال، ومشاق التكليف ابتغاء وجه الله، لا ليقال ما أصبره، وأحمله للنوازل، وأوقره عند الزلازل، ولا لئلا يعاب بالجزع، ولا لئلا يشمت به الأعداء كقول القائل: (وتجلدى للشامتين أريهم)(١)، ولا لأنه لا طائل تحت الهلع، ولا مر فيه للفائت كقول القائل:

ما إن جزعت ولا هلعـــ ـــــت ولا يردُّ بكاىَ زندًا

فكل عمل له وجوه، فعلى المؤمن أن ينوى منها ما كان حسنا عند الله، وإلا لم يستحق ثوابا، وكان فعلا كلا فعل» ا هـ(٢). قيل هذا الكلام بليغ، وفيه بيان متى يكون الصبر ابتغاء وجه ربه، ومتى لا يكون، وإنه بلا ريب كلام حق، ولكنى أزيد عليه، بأن كلمة: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لابد أن يكون فى موضع معين يكون الصبر فيه ابتغاء وجه الله، أى يبيع المؤمن نفسه لله تعالى صابرا محتسبا، وهو الجهاد، فهذه الجملة السامية أو الخصلة الكريمة مع أنها تفيد أن الصبر فى كل أحواله خير، وخصوصا إذا لم تقصد به المفاخرة، كما جاء على لسان بعض الشعراء، فإن الأخص هو الصبر فى الجهاد، يدفع نوازع النفس، وبالتقدم للميدان رجاء ما عند الله تعالى، والصبر فى كل أحواله خير.

ومعنى ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أن يطلب رضا ذات الله تعالى العلية عليه. وعبر بالوجه عن الذات؛ لأنه فى أصل معناه اللغوى ما يواجه الإنسان.

والخصلة الثانية: إقامة الصلاة، أى الإتيان بها مستوفية الأركان، وبخشوع وخضوع، وبأداء حقيقة معناها الناهية عن الفحشاء والمنكر، كما قال تعالى: ﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ... (٤٥)﴾ [العنكبوت]،

---

(١) يعنى إظهار الصبر مراءاة كى لا يشمت الشامتون.

(٢) الكشاف للزمخشرى: ج٢/ ٣٥٧، وتتمة البيت كما ذكره البيضاوى ج٦/ ٣٧٦:

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

البيت لأبى ذؤيب قاله يرثى بنيه.

وإن الصلاة إذا أقيمت لقويت النفس، وناجى المؤمن ربه حق المناجاة، وقرب من ربه، وامتلأت نفسه به، وصار قلبه نورا، وفكره نورا، واستقامت نفسه وقلبه.

الخصلة الثالثة: كما قال تعالى: ﴿**وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً**﴾، وقوله تعالى: ﴿**مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**﴾ معناها: إنفاق بعض ما رزقناهم، أى من حلال مكاسبهم، فالكسب الحلال رزق من الله، وإضافة الرزق إلى الله تعالى يقتضى أولا ما ذكرنا وهو أن يكون حلالا، ويعتبر ثانيا أن المال مال الله تعالى فهو الذى رزق، وما تكلف من إنفاق إنما هو مما أعطاك، فقد أعطاك لتنفق، فهو ابتلاك بالمال لتنفقه وتشكر، وابتلى غيرك بالفقر ليصبر، والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق.

وقوله: ﴿**سِرًّا وَعَلانِيَةً**﴾ ولكل حال فضلها، ففضل السر الستر على من يعطيه، وألا يكون تفاخرا، وأن يكون العطاء لوجه الله لا رياء فيه، وقد قال النبى ﷺ: «**من تصدق يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك**»[1]، وفى العلانية فضل أحيانا كأن تحرض الناس على العطاء، وأن يمنع الاتهام بالشح ليقى نفسه منه.

والخصلة الرابعة: بينها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**﴾.

(درأ) بمعنى دفع، ومن ذلك قوله تعالى فى اللِّعان: ﴿**وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨)**﴾ [النور].

ودرء السيئة بالحسنة فسرها المفسرون بأنه دفع الإساءة بالإحسان، ومقابلة الحرمان بالإعطاء، والقطيعة بالوصل، كقول النبى ﷺ: «**ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها**»[2]، وقد روى عن ابن عباس أنه

---

(١) رواه أحمد، وقد سبق تخريجه.

(٢) رواه البخارى: الأدب ـ ليس الواصل بالمكافئ (٥٥٣٢). كما رواه الترمذى: البر والصلة (١٨٣١)، وأبوداود: الزكاة (١٤٤٦)، وأحمد: مسند المكثرين (٦٢٣٨).

قال فى معنى هذه الآية: يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرهم، وعن الحسن البصرى: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قُطعوا وصلوا.

وجملة هذه المعانى تتجه إلى نشر التسامح، ومنع مبادلة السوء بالسوء حتى لا يؤدى ذلك إلى التقاطع والتدابر، وأن يكون بأس المسلمين بينهم شديدا، وهذا هو ما أمر الله تعالى به منعا للعداوة، فقد قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت].

هذا معنى سليم مستقيم، ويصح أن نقول: إن معنى قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، أن الإكثار من الحسنات يدفع السيئات؛ ذلك أن الحسنات طهارة للنفس، والطهارة تزيل أخباث النفس، كما قال تعالى: ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ... (١١٤)﴾ [هود] فإن السيئات تخط فى القلب خطوطا، والحسنات تزيلها، أو تذهب بنكتها السوداء، ويصح أن يراد المعنيان. ولقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن الحسنة تمحو السيئة، فقال ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»[1].

وقد بين الله تعالى جزاء المؤمنين الذين اتصفوا بهذه الصفات السامية المطهرة للنفوس وللجماعات، وهى تدل على أن هذه الصفات هى سبب الجزاء العظيم، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وعقبى الدار (الجنة)؛ ولذا بينها سبحانه وتعالى بقوله:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾.

---

(١) رواه الترمذى: البر والصلة ـ ما جاء فى معاشرة النساء (١٩١٠)، كما أخرجه أحمد فى مسند الأنصار (٢٠٣٩٢)، والدارمى: الرقاق (٢٦٧١).

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل أو بيان لمعنى عقبى الدار، أو الدار نفسها التى تكون عاقبة العاملين عملا صالحا، والذين صبروا فى الجهاد ابتغاء وجه ربهم، و﴿عَدْنٍ﴾ يعنى إقامة، أى جنات يقيمون فيها إقامة دائمة وهى الفردوس، وتكون فى وسط الجنة، وفوقها عرش الرحمن الذى يحكم فى عباده بما يشاء، وهذا تصوير بيانى رائع لبيان النعيم المقيم الذى يختص به الأبرار المجاهدون الأطهار.

يدخلونها، لا عائق يعوقهم، ولا حائل بينهم وبينها، ويُدخلون معهم من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. ذكر هؤلاء الذين يكوِّنون الأسرة، والمؤمن فى حنان مستمر إلى هؤلاء، من آباء وأمهات وأبناء وأحفاد. فالله سبحانه وتعالى يطمئنه عليهم، وبأن الأسرة الدنيوية تكون معه فى الآخرة يأنس بها وتأنس به، وقيد هؤلاء بأنهم الصالحون، وغير الصالحين ليسوا منه، وليس هو منهم كابن نوح، إذ قال ربه: ﴿ ... إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ... (٤٦) ﴾ [هود]، وهذا يشير إلى أن الجنة جزاء للأعمال، لا للأنساب كما قال النبى ﷺ لأحبابه من بنى هاشم: «**يا معشر بنى هاشم، لا يأتينى الناس بالأعمال وتأتونى بالأنساب، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**»[1]. وقد فهم بعض المفسرين أن أولئك ألحقوا به إكراما له، ولكن اشتراط الصلاح يقيِّد دخولهم ﴿وَمَن صَلَحَ﴾، إنما كان استقلالا لعملهم بدليل ذكر الصلاح، ولكن ذكروا معه لبيان أنسه بأحبابه فى الدنيا أولا ولاطمئنانه على من يحدب عليهم ثانيا.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى أنس المجاهدين الصابرين المتقين بذوى الصلات بهم فى الدنيا إذا صلحوا ـ ذكر أُنسا روحانيا كريما، وهو إيناسهم بالملائكة الأطهار، فقال تعالت كلماته: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أى يحفون بهم، يجيئون إليهم من كل ناحية، فهم فى أنس روحى، كما أنهم فى متعة الجنة، وهى نعيم مادى، ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) ﴾ [الرحمن]، وفيها كل ما تشتهى النفس، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب

---

(١) رواه أبو يعلى مرسلا، ووثقه ابن حبان وغيره، مجمع الزوائد (٢٩٦٧٢): ج١٠/ ٣٩٠.

بشر، وأولئك الملائكة الأبرار يقولون ما يملأ نفوسهم بالأمن والبشر والاطمئنان؛ ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾، ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ... (٤٤) ﴾ [الأحزاب] وهذا يتضمن معنى الإيناس بإقراء السلام، فإقراء السلام فى ذاته إيناس، وفيه مع ذلك بث الاطمئنان وطيب الإقامة، وذلك بسبب الصبر، أى بسبب صبركم فى الجهاد، وصبركم على الطاعات وتجنب الشهوات، وصبركم على تحمل المكاره، وصبركم على البعد عن الأحبة، وقد روى عبد الله بن عمر، أن النبى ﷺ قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «المجاهدون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم النار، فيموت أحدهم وحاجته فى نفسه لا يستطيع لها قضاء، فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»(١).

ولقد روى أن النبى ﷺ كان يأتى على قبور الشهداء كل حول فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»(٢)، وكان أبو بكر وعمر وعثمان يفعلون ذلك، ولم يذكر عليّ مع أنه بطل الجهاد الأول بعد رسول الله ﷺ، وهو أعرف الناس بعد الرسول بحق الجهاد وهو القائل: (الجهاد باب من أبواب الجنة).

وإن النبى ﷺ قال: «الجهاد ماض إلى يوم القيامة»(٣)، وإن المسلمين هانوا على أنفسهم يوم بث أعداؤهم التخاذل عن الجهاد، فأطاعوهم، فخذلهم الله تعالى، ولا تزال تطلع على المتخاذلين من المسلمين عن الجهاد، فقد ساروا وراء أذيال النعم، وصاروا عاملين لأعدائهم يقدمون لهم أسباب المال الذى يستخدمونه ضدهم.

ثم بين سبحانه أن هذا الجزاء هو خير الجزاء، فقال: ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾.

الفاء للإفصاح، أى إذا كان ذلك هو العقبى والنتيجة، فنعم هذه العقبى، وتلك النهاية.

---

(١) سبق قريبا. (٢) انظر ما جاء فى البداية والنهاية - ج٤/ ٢١٨.

(٣) رواه أبو داود: فى الغزو مع أئمة الجور (٢١٧٠).

أوصاف الضالين

قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

هذه أوصاف الذين عتوا عن أمر ربهم، وخرجوا عن جادة الحق، وأوصافهم في مقابلة أوصاف المؤمنين، وهم متصفون بصفات ثلاث، جعلتهم يمردون على الكفر والطغيان، وهذه الصفات الثلاث هي: نقض عهد الله، والثانية: قطعهم ما أمر الله به أن يوصل، والثالثة: الفساد في الأرض.

أما الأولى فقد بينها سبحانه وتعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**﴾ وعهد الله تعالى بَدَهي تدركه البديهة السليمة؛ لذا سمى دين التوحيد، فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها. وهي إدراكها حقيقة، حتى إن بعض

العلماء المسلمين قال: إن إدراك الله تعالى تدركه البديهة السليمة؛ لذا سمى دين التوحيد، فطرة الله التى فطر الناس عليها. وقد نص على عهد الله فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) ﴾ [الأعراف].

ولم يترك الناس بعد هذا العهد الذى أخذ بمقتضى الفطرة، بل وثَّقه بميثاق، ولذا قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهذا الميثاق الذى وثق به الرسل الذين أرسلهم مبشرين ومنذرين ﴿ ... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿ ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء].

ولقد جاءت النذر بهلاك الأمم التى فسقت عن عهدها، فكان ذلك توثيقا بعد توثيق، وإنذارًا بعد إنذار، ومع ذلك نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه.

الصفة الثانية: قطعهم ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام، والعلاقات الاجتماعية الفاضلة على ما بينا فى معنى قوله تعالى فى صفات المؤمنين: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾.

الصفة الثالثة: أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ الفساد فى الأرض ألا يقوم فيها النظام الاجتماعى على التكافل بين الآحاد، ومعاونة بعضهم، وألا يستعلى قوى على ضعيف، وألا يندغم الضعفاء فى الجماعة، وألا يراعى لهم حق، وأن يكون التفاوت الظالم بين الآحاد، وألا يكون ضابط يحمى الضعفاء من الأقوياء والأغنياء من الفقراء، وأن يسود الظلم من الحكام لرعاياهم، فإن ذلك فسادا أى فساد، وقد رأينا حكاما ظالمين يقتلون الرعية بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، والله أكبر، ويدعون أنهم يصلحون وهم المفسدون؛ لأن أساس كل نظام العدل. إفساد أى حكم بالظلم أولا، وما يتبعه

تحسس وتجسس وسعاية ثانيا، وما يجرى وراءه من نفاق ثالثا: وإذا جاء النفاق عمّ الفساد. ولقد قال أبو العالية: «ست صفات فى المنافقين، إذا كانت الظهرة (أى السيطرة) على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا فى الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا ثلاث خصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا».

وإن النفاق دائما وليد الاستبداد الغاشم، والظلم الطاغى، وقد رأينا وشاهدنا.

وقد بين الله سبحانه الجزاء الأوفى للذين لايؤمنون، فقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ اللعنة هى الطرد، وقد ذكرت غير مقيدة، فإنها فى الدنيا أو الآخرة، أما لعنتهم فى الدنيا فالمقت الشديد والبغض والكراهية، وسوء الأحدوثة، واقتران حياتهم بالخوف من الناس، والاضطراب النفسى حتى يموتوا بغيظهم، وسوء الحديث عنهم تتوارثه الأجيال جيلا بعد جيل. ويقال فيهم ما قاله الشاعر البطل محمود سامى البارودى:

زالوا فما بكت الدنيا لطلعتهم   ولا تعطلت الأعياد والجمع

واللعنة فى الآخرة: الطرد من رحمة الله ورضوانه، فلا ينظر إليهم ولا يكلمهم الله ولا يزكيهم ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ والدار هى الآخرة وسوءها جهنم وبئس المهاد.

وإن المشركين كانوا يغترون بمالهم ونفوذهم، والمؤمنون كانوا فى أكثرهم فقرا وضعفا وكانوا يعقدون ملازمة بين رضا الله والفقر، فمن كان غنيا فهو موضع رضا الله، ومن كان فقيرا ضعيفا فهو موضع مقت الله تعالى، فازدادوا بذلك كفرا وطغيانا، فبين الله سبحانه أنه لا ارتباط بين الغنى والإيمان، ولا بين الضعف والكفر.

قال تعالت كلماته: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ (٢٦)﴾.

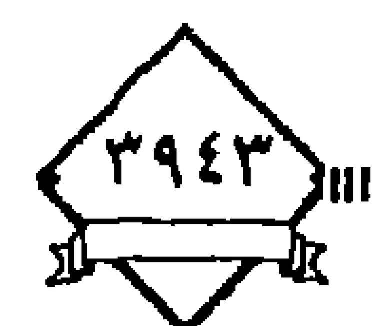
صدّر سبحانه وتعالى الآية الكريمة بلفظ الجلالة الذى يطالبهم الله تعالى بعبادته وحده من غير أن يشركوا به شيئا، ويبين سبحانه أنه هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء، أى يمده ويجعله ممدودا واسعا، ويقدره لمن يشاء أى يجعله محدودا قليلا، كقوله تعالى: ﴿... وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ... (٧)﴾ [الطلاق].

والمعنى فى تصدير الآية بلفظ الجلالة هو أن الله تعالى هو الذى بسط لكم الرزق، فكان حقا عليكم أن تشكروا لا أن تكفروا وتشركوا أحجارا. وهو الذى قدر الرزق للضعفاء والفقراء فصبروا فحق لهم التكريم وحسن الجزاء، ولا يستوى المحسن والمسيء، ولا الأعمى والبصير.

وإن الله الذى بسط الرزق وقدره لم يجعل أمر الدنيا فى السعة والضيق دليلا على الرضا أو البغض إنما هذا للاختبار، فهو سبحانه وتعالى يختبرنا بالتوسعة ويطالب بالشكر، ويختبر بالقدر والضيق ويطالب بالصبر، وكل له جزاؤه.

وإن أولئك المشركين بسط الله تعالى لهم فى الرزق فلم يشكروا؛ ولأن الشكر يقتضى أن يحسوا بفضل المنعم، لا أن يحس فقط بالاستمتاع بما أعطى، والاستطالة به على الناس وإن ذلك ينشأ من الفرح ببسط الرزق، لا ينشأ من القيام بحق الشكر؛ لأن إحساس المؤمن بأنها ابتلاء، كما قال تعالى: ﴿... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ... (٣٥)﴾ [الأنبياء]، وإحساس الكافر بأنها متعة ينتهزها.

ولقد قال فى ذلك: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى إن الكافرين فرحوا بما بسط الله تعالى من الدنيا، ففرحوا بها فرحا أدى إلى أن بطروا معيشتهم، وغمطوا الناس حقوقهم، وإن فرحهم بالحياة الدنيا لم يكن فرحا يذوقون حلوها ومرها، بل فرح استعلاء واستغواء لا يلاحظون إلا أنها متعتهم يستكبرون بها على غيرهم،



وينسون فى سبيل ذلك كل حق عليهم، ولا يعرفون أن المتعة حق يتبعه واجب، وبذلك تكون متعة لا يعقبها خير فى الآخرة ينالون به نعيما مقيما؛ إذ لم يلتفتوا إلى الآخرة وما فيها، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ التنكير فى ﴿مَتَاعٌ﴾ للتحقير لا للتكبير، أى الإمتاع نزر قليل، لا بقاء له، لأنه سرعان ما يزول إذ هو فى الدنيا، والدنيا زائلة، ويقول الزمخشرى فى ذلك: (وخفى عليهم أن نعيم الدنيا فى جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئا نزرا يتمتع به كعجالة الراكب، وهو ما يتعجله به من تُميرات، أو شربة سويق أو نحو ذلك)(١).

ولقد ذكر الله تعالى فى آيات أخر، مثل قوله تعالى: ﴿... قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧٧﴾﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون].

وإنهم يتعللون لكفرهم الطاغى بأنهم لم تجئ إليهم آية تثبت رسالة النبى ﷺ، ويطالبون بآية كونية، كالآيات التى جاءت للأنبياء السابقين مستهينين بالآيات المتوالية التى جاء بها محمد ﷺ أو غافلين عنها ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾.

إن هذا من تعنتهم ومحاولة إعناتهم للنبى ﷺ، وحالهم كحال الأعمى الذى لا يحسن أن يعيش فى ضوء الشمس وحرارتها، ويقول لا توجد شمس ولا دفء، وما العيب إلا فى مشاعره التى إيفت، فهو ينكر ما لا يحس به، طلبوا ملكا رسولا، وطلبوا أن تفجر الأنهار، وغير ذلك من المطالب التى ساقوها، وما هى إلا تعلاّت الكفر والإشراك، ولقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله أو بعشر آيات من مثله فعجزوا، وكان عجزهم دليلا على أنه من عند الله، ولقد أمر الله سبحانه

(١) الكشاف: ج٢/ ٣٥٩.

وتعالى نبيه أن يرد عليهم بأن الذى دفع إلى طلب هذه الآية هو ضلالهم، وإصرارهم على الكفر والعناد، وقد جاءت هذه الآيات وأشباهها لمن سبقوهم وكفروا وضلوا سواء السبيل، أمر الله نبيه فقال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

﴿أَنَابَ﴾ رجع، أى رجع إليه، وابتدأ السير فى طريق الهداية، فإن الله يأخذه بيده حتى يصل إلى نور ربه، والمعنى: الذين كتب الله تعالى عليهم الضلالة، وهم الذين ساروا فى طريق الغواية يكتبهم سبحانه من الضالين فتعمى قلوبهم عن إدراك ما فى الآيات من أمارات الحق وهدايته، وإن كانت هى فى ذاتها منيرة بينة، أما الذين عادوا إلى ربهم وأنابوا إليه فإنه يهديهم إليه سبحانه وتعالى.

وهذا يفيد أن الذين يريدون آية غير القرآن وغير ما جاء على يديه من خوارق العادات كالإسراء والمعراج إنما يريدون هذه الآية إمعانا فى ضلالهم.

وهنا إشارات بيانية نذكرها:

أولاها: التعبير بالمضارع فى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيها إشارة إلى تكرار قولهم هذا وهم مبطلون.

الثانية: التعبير بالموصول يدل على أن الصلة علّة الطلب، فكفرهم هو علة طلبهم، أى أنهم سبقوا إلى الكفر فاعتنقوه، ثم حاولوا الاستدلال لتأييده، فما طالبوا ببراءة، طالب الحق بل حكموا أولا وأخذوا يتعنتون لإثبات ما هم عليه ومثلهم كمثل القاضى الذى يحكم ثم يحاول تقديم البينة لإثبات ما حكم به.

الثالثة: أن الهداية تكون لمن فتح قلبه للرجوع إلى الله؛ ولذا عبر بالماضى فى قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ أى من فتح قلبه للإنابة إلى الله، فأخذ الله سبحانه وتعالى بيده إلى الحق، والتعبير بالمضارع فى قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾، للإشارة إلى تكرار الهداية بشرطها من غير إجبار على كفر، ولا طاعة، بل الطاعة بالإرادة، ولذا كان الثواب والمعصية بإرادة العاصى؛ ولذا كان العقاب.

وقد قال الزمخشرى فى الكشاف فى قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ قال ما خلاصته: كيف كان قوله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب ردا لقولهم: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾؟ فأجاب بأن قوله تعالى يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب كلام جارٍ مجرى التعجب من قولهم؛ وذلك لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التى أوتيها رسول الله ﷺ لم يؤتها نبى قبله، وكفى بالقرآن وحده آية، وراء كل آية، فإن جحدوها ولم يعتبروا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط، كان موضعا للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم ما أعظم عنادكم، وما أشد تصميمكم على كفركم، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة، فلا سبيل إلى اهتدائكم وإن نزلت كل آية[1].

وإن ذلك بيان يليق بمقام الزمخشرى فى البيان، وإدراك ملامح القول، وهو لا ينافى ما بينا من قبل، وإن زاد معنى التعجب من صلابة تفهم.

وأناب فى قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ معناها: أقبل إلى الحق، ودخل فى توبة الخير؛ لأن أناب معناها اللغوى دخل فى التوبة، والمناسب هنا دخوله فى توبة الخير.

وقد بين الله تعالى الذين أنابوا من الاطمئنان والإيمان فقال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدل أو بيان لقوله تعالى فى الآية السابقة: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، فهى بدل من قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، وعلى ذلك يكون محل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، النصب؛ لأن ﴿مَنْ﴾ محلها النصب، على أنها مفعول به لـ﴿يَهْدِي﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الفعل ﴿تَطْمَئِنُّ﴾ يكون معطوفا على ﴿يَهْدِي﴾، ويكون الفعل المضارع معطوفا على مثله، وليس فى الكلام السامى عطف مضارع على ماض.

---

(١) المرجع السابق.

أى أن الله يهدى من أناب، وهم الذين آمنوا وصدقوا وأذعنوا، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى بهذه الهداية، والرجوع إلى الله تعالى وبذكر الله، وذكر الله تعالى يجعل القلوب مطمئنة؛ لأنه إذا امتلأ القلب بذكر الله تعالى سكن إليه، وأصبح لا يبالى شيئًا من كوارث الدنيا، فالقلق والفزع، والخوف من الحرمان، والشدائد، كل هذا يذهب، ولا يكون شيئا إذا عمر القلب بذكر الله، فلا يكون فيه فراغ لشىء من هذا الخوف أو الفزع؛ وذلك لأن الأنس بالله يوجد فى القلب اطمئنانًا، ويجعل النفس فى حال رجاء لرحمته، ومغفرته.

وقد قرر الله تعالت حكمته هذا المعنى فقال: **﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾**، أى أنها تكون فى فزع هالع إذا لم تذكر الله، فإذا ذكرت الله تعالى هان كل شىء؛ لأنها حينئذ تلجأ إلى حصن من القرار، لا تصل إليه عوامل القلق والاضطراب، وقوله تعالى: **﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾** بتقديم الجار والمجرور على الفعل يفيد الاختصاص، أى بذكر الله وحده لا بشىء آخر تطمئن القلوب، و(الـ) فى **﴿الْقُلُوبُ﴾** لبيان عمومها، فالقلوب كلها لا تطمئن إلا بذكر الله تعالى؛ ولذلك تكون القلوب الخالية من ذكر الله تكون فى فزع مستمر؛ لأنها خالية من الإيمان غير عامرة.

وإن المؤمنين لفرط إحساسهم بالواجبات عليهم وإدراكهم للنذر تقشعر جلودهم عند سماع القرآن، وما فيه من نذر تقشعر جلودهم، ولا يذهب بذلك إلا ذكر الله تعالى، اقرأ قوله تعالى: **﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾** [الزمر].

ذلك جزاء معنوى للمؤمن الذاكر لله تعالى العامر قلبه بأنسه ونوره، وفى الآخرة يكون هذا الجزاء، وجزاء رضوان الله تعالى، ونعيم الجنة، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك فقال عز من قائل:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) ﴾.

هذا جزاء آخر، غير جزاء الاطمئنان والقرار الذى يختص به المؤمنون دائما، ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ وهى على وزن فعلى كبشرى، وزلفى، وأصلها طيبى، وقعت الياء ساكنة بعد ضمة فقلبت واوا، وقد قال الزمخشرى عالم البيان فى تصريفها: «وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى، ومعنى طوبى لك أصبت خيراً وطيبًا ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيبا لك، وطيب لك، وسلاما لك، وسلام لك».

وعلى كلام الزمخشرى تكون هذه الكلمة السامية تحية من الله تعالى لعباده المؤمنين، وتكون هذه التحية مقررة لهم بأن لهم السلام والاطمئنان، والطيب فى إقامتهم فى الجنة، بدليل ما جاء معطوفًا عليها، وهو قوله تعالى: ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ أى مآب، ومرجع ونهاية هى حسنة فى ذاتها، ليجتمع لها طيب الإقامة، وحسن الثواب، بل كلاهما من الثواب.

وطوبى، محلها هنا الرفع، بدليل المعطوف عليها، فإنه مرفوع.

وقد ذكر سبحانه وتعالى لاستحقاق هذه التحية المباركة وصفين:

الوصف الأول: الإيمان.

والوصف الثانى: العمل الصالح.

فالعمل الصالح غذاء الإيمان، وإذا لم يكن جف الإيمان، وصار حطاما أو غثاءً أحوى، وإن أساس الخير هو الإذعان للحق، ثم الجهد به، ثم العمل، ثم السير على مقتضى الإيمان فى أعمال الحياة، اللهم هب لنا من لدنك رحمة، وهيئ للمسلمين من أمرهم رشدا، وهبهم الاطمئنان إلى ذكرك، وحتى لا يرهبوا، ولا يفزعوا ولا يطمعوا، واجعل قلوبهم تعمر بك، حتى يجتمعوا، ولا يتفرقوا.

معجزة القرآن تسير الجبال

قال الله تعالى:

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

بين الله تعالى لنبيه الكريم الذى لاقى ما لاقى فى سبيل دعوة الحق أن ذلك سنة الجهاد فى سبيل دعوة الرسل وقد أتيت فى رسالته بأمر خطير، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... (٣٥)﴾ [الأحقاف].

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾، أى كذلك الإرسال الذى أرسلنا به الرسل السابقين أرسلناك، فالشبه هو إرسال النبى ﷺ ذلك الإرسال الذى حمله الواجبات الكبرى والجهاد الأعظم، والمشبه به إرسال الأنبياء السابقين، فالإشارة هى إلى إرسال الرسل السابقين.

ويصح أن تقول: إن الإشارة إلى إرسال النبى ﷺ، وهو المشبه به، والمشبه هو إرسال الرسل إلى الأمم الأخرى، والمعنى على هذا أن ما تعانيه من إنكار المنكرين فى سبيل الحق الذى لا ريب عاناه من قبلك رسل سبقوك فى أمم قد خلت، فاصبر كما صبروا فلا تحسب أن من سبقوك وجدوا أرضا طيبة وقولا ولا كلاما مجابا ولا تسليما سهلا لا معاناة فيه.

قوله: ﴿فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾، أى أمة الشرك التى قد مضت من قبلها أمم على مثل ما هى عليه من إنكار وجحود ولاقى رسلهم منهم مثل الذى تلاقى من عنت واستهزاء وسخرية، وإيذاء لمن اتبعوك، وفتنة للضعفاء فى دينهم، وعناد ومحادة لله ولرسوله، ولأهل الحق؛ ولذلك قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾، أى مضت من قبلها أمم.

والغاية من الرسالة التى بعثت بها أن تتلو عليهم القرآن؛ ولذا قال: ﴿لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ اللام للتعليل، والمعنى أرسلناك لتتلو عليهم القرآن الذى أوحيناه إليك، والتلاوة القراء المتتابعة المتناسقة فى اللفظ والمعنى، ويصح أن تكون بمعنى الترتيل، وقد نقل إلينا القرآن متلوا مرتلا، فلم تثبت روايته هو بذاته فقط، بل تواتر طريق ترتيله، فجبريل الأمين علم النبى ﷺ ترتيله، كما حفظه القرآن ذاته؛ ولذلك نزل القرآن منجما، ليحفظه النبى ﷺ مرتلا؛ ولذا قال تعالى فى بيان حكمة نزوله منجما: ﴿... كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان].

ومع هذا الترتيل الذى تذهب به المعانى فى النفس حالهم حال إنكار شديد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وقد نص على كفرهم بالرحمن، وكان التعبير بالرحمن عن الذات العلية مع أنهما اسمان للذات العلية، ولا تتغير الذات بكثرة أسمائها، وإن التعبير بالرحمن لملاحظة الرحمة الشاملة، فهم مغمورون برحمته فى وجودهم وكلاءتهم، إذ هو الذى يكلؤهم فى السموات والأرض، ومع

أن نعمه سابقة لهم، ورحمته لهم، كفروا به، والتعبير بالمضارع يفيد استمرار كفرهم وتجدده آنًا بعد آن.

ولقد روى أن العرب كانوا فى إيمانهم الناقص بالله سبحانه وتعالى ما كانوا يعرفون إلا لفظ الجلالة، حتى إن النبى ﷺ، وهو يملى شروط صلح الحديبية وابتدأه بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: الرحمن هو رحمان اليمامة لا نعرفه قل باسمك اللهم، وقد نزل فيهم: ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ... (١١٠) ﴾ [الإسراء].

وقد أمر الله تعالى أن يعرفهم بالرحمن فقال تعالت كلماته: ﴿ **قُلْ هُوَ رَبِّي** ﴾، أى هذا الذى يكفرون هو ربى الذى خلقنى ورباني وقام على شئونى، فهو الحى القيوم القائم على كل شىء، وهو الله.

﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ** ﴾، أى عليه وحده توكلت فى الدنيا؛ لأنه هو القائم على كل نفس بما كسبت، وتقديم الجار والمجرور على الفعل للدلالة على القصر، أى لا أتوكل على غيره، والتوكل لا ينافى العمل، بل إن التوكل بين أمرين كلاهما باطل، الأمر الأول أن يعتقد أن الأسباب وحدها هى التى تؤثر فى النجاح، وينسى قدرته المحيطة بكل شىء، والثانى من الباطل التواكل، وهو أن يهمل الأخذ بالأسباب، بل يأخذ بالأسباب، ويترك الوصول إلى النتائج لله سبحانه وتعالى فهو تعالت قدرته لا يغفل عن شىء، والقادر على كل شىء ﴿ **وَإِلَيْهِ مَتَابِ** ﴾، (متاب) مصدر ميمى لتاب بمعنى رجع وتقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص، أى أن مرجعى إليه وحده، وله الحساب وحده، وله الثواب والعقاب وحده، لا شريك له، فالملك اليوم لله الواحد القهار.

وإن المشركين طلبوا آيات: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ** ... (٣٧) ﴾ [الأنعام]، وكأنهم لا يعتدون بما جاء النبى ﷺ من معجزة القرآن، وأنه سبحانه وتعالى تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، وبدا عجزهم، وظهر إعجازه، ولم يكن

لأى آية غير ذلك التحدى المعجز، ولأجل ذلك بين الله سبحانه وتعالى مقام القرآن فى ذاته، وأنه أغلى كلام فى الوجود، ولو أن كلامه يسير الجبال لسيرها، ولو أن قرآنا يقطع الأرض أجزاء لقطعها، فقال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾.

جاء فى السيرة النبوية أن نفرًا من كفار قريش ذهبوا إلى النبى ﷺ يتحدونه فيهم أبو جهل، وعبد الله بن أمية، فقال عبد الله: إن سرك أن نتبعك سيِّر لنا جبال مكة بالقرآن فادعها عنا حتى نتفسح فإنها أرض ضيقة، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا؛ حتى نغرس ونزرع فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين سخر الجبال تسير معه، وسخر لنا الريح لنركبها إلى الشام نقضى عليها ميرتنا ونوائجنا، ثم نرجع من يومنا، فلقد كان سليمان سخرت له الريح كما زعمت، فلست أهون على ربك من سليمان بن داود، وأحْىِ لنا قصى بن كلاب جدك، أو من شئت أنت من موتانا، فعيسى كان يحيى الموتى، ولست أهون عند الله من عيسى ابن مريم.

ولقد حكى القرآن الكريم فيما تكون من قبل عنهم مثل ذلك فقد قالوا: ﴿ ... لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ... (٩٢) ﴾ [الإسراء] إلى آخر ما تلونا.

وقد نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾، ولا نقول: إن أقوالهم التى رواها القرآن الكريم عنهم أم التى روتها كتب السنة هى السبب فى نزول هذه الآية كما ذكر فى أسباب النزول، أم أن الآية الكريمة جاءت لتحقيق معنى فى القرآن لا يوجد فى غيره من الأمور الخارقة للعادة، فالآية الكريمة تبين أن القرآن أعلى من

كل ما ذكروه وطلبوه من آيات لولا أنه من طبيعة غير طبيعتها، ومنهاج غير منهاجها، وهو أبقى وأخلد، فما يطلبون هو حوادث تنقضى بانتهاء وقتها، أما القرآن فباق خالد إلى يوم الدين، يتحدى الأجيال كلها شامخًا عاليًا أن تأتى بمثله، كما تلونا من قبل: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء].

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾، أى لو ثبت أن قرآنًا يقرأ ويتلى سيرت به الجبال، فانتقلت من أماكنها، وانفسحت عن شعابها لتتسع رقعة للزرع والغراس، أو قطعت الأرض فتشققت ـ لا تكون منها بحار تجرى فيها المياه، أو يكلم به الموتى بمعنى أنه يحييها، ثم يكلمها، وجواب الشرط محذوف يفهم من سياق القول، وهو لكان هذا القرآن، ولكن الكلام لا يسير الجبال، ومع ذلك فهو أقوى تأثيرًا، وكان يمكن أن يؤثر فى قلوب المشركين بأشد من ذلك، لولا أن عنادهم حجر قلوبهم، وكما قال سبحانه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ... (٢١) ﴾ [الحشر]، ولكن القلوب التى سكنها الشرك والكفر، وهى كالحجارة أو أشد قسوة، بل لله الأمر جميعا، الاضراب للانتقال بين هذا إلى بيان أن اختيار المعجزات من أمر الله، وله وحده كل الأمر.

ويقول تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾، فسر كثير من المفسرين أن ييئس هنا بمعنى لم يعلم، وساقوا شواهد من العربية للدلالة على ذلك، وفسرها الزمخشرى بذلك، وبجواز أن تكون ييئس بمعنى اليأس، وهو اليأس من إيمان المشركين، ويزكى هذا قوله تعالى بعدها: ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، ولنترك الكلمة له فهو يقول رضى الله تعالى عنه:

«ومعنى ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ أفلم يعلم قيل هى لغة قوم من النخع، وقيل إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمينه معناه؛ لأن اليائس عن الشىء عالم بأنه لن يكون، كما استعمل الرجاء فى معنى الخوف، والنسيان فى معنى الترك لتضمن

ذلك، قال سحيم بن وثيل الرباحى: (أقول لهم بالشعب، إذ ييسروننى، ألم ييئسوا أنى ابن فارس زهدم . . .) إلى أن قال: (يجوز أن يتعلق ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ بآمنوا، على معنى أولم يعتظ من إيمان هؤلاء الكفرة ﴿لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

ومعنى الكلام الأخير، أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان الكافرين، ويعلموا أن لو يشاء الله لآمن الناس جميعا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ الفاء للإفصاح عن شرط مقدر مؤداه أن تكون المعجزة فى هذا المقام من الإعجاز، يقول الذين كفروا غير معتدين بها، فلم ييئس الذين آمنوا من إيمانهم، والاستفهام لإنكار الوقوع أى للمعنى، ونفى النفى إثبات، والمعنى ييئس الذين آمنوا من أن يهتدوا، ويعلمون أن لو شاء الله لهدى الناس.

والمعنى لو شاء الله إيمان الناس جميعًا لآمنوا، ولكنه سبحانه وتعالى تركهم ليطهر المؤمن عن نيته، ويعلم الكافر عن ضلاله، وتركه الحق، ويكون الجزاء عقابًا أو ثوابًا.

وكان على الكافرين أن يرجعوا عن غيهم، ويسيروا فى طريق الرشاد، فالقوارع تنزل بهم قارعة بعد قارعة، أو تحل قريبا من دارهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ القارعة: الكارثة الداهية أو الشديدة التى تقرع حسا قرعا، تنبههم إلى ما هم فيه من الضلال، فمن لا ينهه الدليل والبرهان، ولا يجديه البرهان لا يتنبه بالعقل، بل لابد من الشده تقرع حسه، وكان الإقدام قبل النبى ﷺ إن لم يقتنعوا وعائدوا ينزل بهم ما يزيل ديار، أو ريح صرصر، أو غرق، وغير ذلك مما يبيد خضراءهم، وتبقى من بعدهم من اتبع النبيين، أما محمد، فإن رسالته، باقية خالدة، لا يؤثر فى اتجاهها كفر من كفر، ولكن يغالب الكفر بالإيمان، ليكون من بعدهم من يعبد الله تعالى، ويدعو إلى ربه؛ ولذلك كانت القوارع التى تقرع حسهم، ليست

إبادة، ولكنها مغالبة، ودفع الفساد، فالقارعة التى تصيب الكافرين هزيمة منكرة، تنزل بهم كالتى نزلت بهم ببدر، والخندق، وكأحد فقد رجعوا فيها إلى حنين من الغنيمة بالآيات، وإن كان المسلمون توجهوا بهم قرع، وكان تعليما، وتوجيها، كما قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ... (١٤٠)﴾ [آل عمران]، لكن قرحهم كان هزيمة، وقرح المؤمنين لم يكن انهزامًا ولا فرارًا.

فالقارعة هى الهزيمة لا تزال تصيبهم مرة بعد أخرى، أو تحل قريبا من دارهم، فى السرايا التى يبثها النبى ﷺ، فقد كان يبقيها النبى ﷺ حول مكة تدعو إلى الله، وتنذرهم، حتى كان صلح الحديبية، وبه أمنوا على أنفسهم، وأخذ الناس يدخلون فى دين الله فى مكة وغيرها.

وتلك القوارع، والسرايا التى تحل قريبا من دارهم، حتى يأتى وعد الله بالنصر الحاسم، وأن تكون الكلمة للإسلام فى البلاد العربية وما وراءها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

وإن المشركين كانوا يستهزئون بالنبى ﷺ فى إبان نصرته، كانوا فى إبان مقامه فى مكة، وهم يحسبون أنه فى قبضة أيديهم والله ناصره، وخاذلهم، ألم ترهم يقولون بعد حديث هرقل لهم فى سؤاله عن النبى ﷺ: «لقد أَمِرَ أمر ابن أبى كبشة».

وقد بين الله تعالى أن النبيين استهزئ بهم كما استهزئ به، فإن من لا يدرك الحق يهزأ به، ومن استغرقتهم المادة يستهزئون بأهل الحق، والعالى والروح؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)﴾.

﴿اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ جاءوا مبشرين ومنذرين من قبلك، والاستهزاء يدل على جهل المشركين بما يستهزئون، ونسيانهم فضل من يسخرون منهم، ويدل أيضا على

أنهم لا ينظرون للأمر نظرة من يجد ولا يهزل، ويدل على سيطرة العبث العابث، واللهو الماجن على نفوسهم، وهذه حال تحير الداعى إلى الحق من أين يحملهم على أن ينظروا جادين غير عابثين، ولا مازحين.

ولقد أكد الله استهزاء السابقين برسلهم، باللام، وقد ساق الله تعالى ذلك لنبيه ليتسلى عن إعراضهم واستهزائهم ولئلا يذهب به اليأس من قومه، وألا يرجو الانتصار منهم، فقد استمر الاستهزاء وأملى لهم، أى أعطاهم ملاوة من الزمن، حتى ظنوا أنه لا عاقبة مؤلمة تنتظرهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾.

أمليت كما ذكرنا أعطيتهم ملاوة من الزمن إمهالا لهم من غير إهمال لاستهزائهم، وسخريتهم من الحق، والفاء لبيان أن ما بعدها مسبب عما قبلها، والمعنى كان استهزاؤهم سببا للإملاء لهم، حتى يأخذهم، وهم لا يتوقعون، مثل قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) ﴾ [الأعراف].

وثمَّ للدلالة على التراخى، أى أنه أمد لهم أمدا غير قصير، حتى ظنوا أنه لا مؤاخذة على ما يفعلون، وغرهم الغرور، وحسبوا أن الدنيا قد طابت لهم بحذافيرها، ثم أخذتهم، أى أشعرتهم بسلطانى، وأنى أمهل ولا أهمل والأخذ كناية عن الإشعار بالسلطان؛ لأن الأخذ يتضمن أنهم صاروا غير خارجين عن سلطانه؛ لأن الأخذ أقصى ما يدل على التمكن، وأن يكونوا فى قبضته يصرفهم كيف يشاء، وذكر الله تعالى عقابه فقال: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ ياء المتكلم محذوفة على وجود ما يدل عليها، والمحذوف مع وجود ما يدل عليه يكون كالمذكور، بل إن تقديره بجهله مذكور، لم يبين الله سبحانه وتعالى العقاب، ولكن أشار إليه إشارة تدل على هوله، وعلى أنه كان حاسما قاطعا فمن غرق، أو جعل الأرض سافلها، ومن ريح صرصر عاتية، ولقد قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾ [الحج].

وكما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود].

وفى الصحيحين: «إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته».

الأوثان ليس لها وجود حتى تعبد

قال الله تعالى:

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

هذا بيان لبطلان عبادة الأوثان، وهو برهان يستمد منها، لا من أمر خارج عنها، فالله الأعلى يوازن بين قدرته على كل شيء، وحياطته لكل شيء، وقيامه تعالى على الأنفس، وبين الأوثان التى لا تضر ولا تنفع، وأنها لا حقيقة لها فى عالم الأحياء، يقول تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، وبيان عجز آلهتهم، وقدرة الله تعالى، وقائم معناها: القيام على شئون الأنفس، خلقها، وهى مربوبة لها، وعالم بها، ومحافظ عليها، يعلم ما تسره وما تعلنه، وما تظهره، وما تخفيه.

ويقول ابن كثير فى معنى هذه العبارة السامية: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾، أى حفيظ عليهم رقيب على كل نفس منفوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا تخفى عليه خافية ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس].

فمعنى قام ليس ضد القعود، وإنما معناه القيام على شئون الأنفس، والعلم بها، كما قال تعالى: ﴿ ... هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ... (٢٥٥) ﴾ [البقرة]، وعبر عن القيام بهذه المعانى؛ لأن القيام يدل على الحركة، والحركة تدل على معاناة الأعمال خيرها وشرها، وهو بالنسبة لله تعالى القيام على شئون هذا الوجود، وهو هنا الأنفس.

وذكر الله تعالى كل نفس للدلالة على عموم تدبيره للأنفس، والعلم بما تفعل من خير وشر، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ يتضمن العلم بكل ما تصنع النفوس العاملة، والجزاء على ما تفعل، وفى ذلك بعضها لإنذار العصاة، كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ... (١١) ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾، لتمام الموازنة تكون التسوية مقتضية محذوفا مقدرا تقديره كى لا يستطيع شيئا، ولا يقوم على شىء ولا يضر ولا ينفع.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ضلالهم فى عبادة الأوثان، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾، وهذه الجملة حالية، والحال أنهم جعلوا لله شركاء يشركونه فى العبادة مع أنها لا تنفع ولا تضر، ومع أن ذاته العلية جلت عن المشاركة، وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يسألهم عن حقيقتها، ولكنها من بيان الكنه والحقيقة يتبين بطلان ما يعتقدون قال تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ عبر عنهم بضمير ما يفعل على حسب زعمهم وأوهامهم، وإلا فهى حجارة لا تضر ولا تنفع، ولا تعقل ولا تدرك.

﴿سَمُّوهُمْ﴾، أى اذكروا أسماءهم، وأوصافهم، أى شىء لهم من الأسماء والصفات، وإنهم إذا جاءوا إلى ذلك، قالوا: إنها أحجار سميت اللات أو العزى أو هبل، أو نحو ذلك من الصفات التى تجعلها دونهم، فكيف يعبدون ما هى دونهم أو لا وجود لها فى حقيقة أمرها، إلا أن تكون أحجارا، لا تنطق ولا تضر، ولا تنفع.

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾، أم للإضراب الانتقالى مع تضمنها معنى الاستفهام الإنكارى التوبيخى، أى أتنبئونه بشىء لا يعلمه فى الأرض، وهو خالقها، والذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض، أى أتنبئونها بأمر لا وجود له، والمؤدى أنها لا وجود لها فى الأرض فهل تنبئونه بأمر لا يعلمه فى هذه الأرض، وهذا كلام يؤدى لا محالة إلى أشياء لا وجود لها فى الأرض؛ لأنها لو كان لها أسماء وأوصاف لادعى وجودها، ولو كان لها وجود كآلهة فى الأرض لعلمها سبحانه. ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾، أم للإضراب عن السابق مع دلالتها على الاستفهام التوبيخى الذى ينبههم إلى فساد قولهم، والمعنى أهذا العلم بظاهر من القول الذى لا يدل على حقيقة فقط، إنما أوهامهم جعلتهم يرددون ظاهرا من القول لا يستطيعون أن يقولوا فيه إنه شىء له وجود، وصفات اقتضت الألوهية.

والحقيقة أنه زين لهم وهم لا مدلول له جعلهم يكفرون، وهم لا يشعرون؛ ولذا قال تعالى:

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾.

بل للإضراب عن القول، أى أنه ما دام قد ثبت أنه لا حقيقة لأصنامهم التى يعبدونها، فأوصافهم لا تثبت ألوهية، بل لا تثبت وجود لها نفع وضرر، فالأمر أنهم زين لهم ما هم عليه بوهم توهموه، وخيال تخيلوه، وكان ذلك الخيال أساس مكرهم، وتدبيرهم ضد الحق وأهل الإيمان، وبه صدوا عن السبيل، وصدوا غيرهم عن الطريق السوى، وفى قوله تعالى: ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ قراءة بالضم، أى أنه بهذا التزيين الضال صدوا عن الطريق الحق، وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وهناك قراءة بالفتح، أى صدوا غيرهم عن الحق بالاعتداء، والإيذاء، والاستهزاء بالرسل، ويجب أن يُراد القراءتان أنه لا مانع من الجمع بينهما، فهم أبعدوا بأوهامهم عن الحق، وأوغلوا فى الضلال بإبعاد غيرهم عنه.

وأكد الله سبحانه وتعالى الحكم بالضلال عليهم، فقال عز من قائل: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، أى من يحكم الله تعالى بضلاله؛ لأنه سار فى طريق

الغواية وصل إلى الضلال، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ مِنْ لعموم النفى، أى ليس له من هاد أى هاد، فلا هادى بعد الله.

بعد ذلك بين الله تعالى جزاءه، فقال:

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)﴾.

ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن لهم عذابين، أولهما عذاب الحياة الدنيا، والثانى عذاب الآخرة، ليس لهم من الله من واق.

أما عذاب الدنيا، فإنه واقع فى هذه الحياة، وإن لم يكن هو الأشق، وعذاب الدنيا يبتدئ من ذات أنفسهم، وهو ضلال الفكر واضطرابه وعدم استقامة أنفسهم، فإن استقامة العقل والنفس نعمة واطمئنان واستقرار وضد ذلك عذاب، لا ريب فيه، وعذاب الدنيا باللجاجة فى الباطل، والبراهين ساطعة، والأدلة قائمة، ثم من عذاب الدنيا الخزيان والذل، وضرب الذلة، ومن عذاب الدنيا قتلهم بسيف الحق، كما كان فى بدر والأحزاب، بل أحد الذين رجعوا فيها من الغنيمة بالإناب، وقد يكون عذاب الدنيا بآية من آية.

أما عذاب الآخرة فهو أشق من عذاب الدنيا، ويواجهون الله، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾، فالله لا ينظر إليهم ولا يكلمهم، ويبدو لهم جهلهم، وضلالهم، ثم بعد ذلك جهنم التى جعلها مثوى الكافرين، و﴿مِّنَ﴾ فى قوله: ﴿مِن وَاقٍ﴾ لاستغراق النفى، أى ما لهم واق من عذاب الله واقٍ، ما لهم من شفيع ولا نصير، بل إنهم يتقدمون إليه سبحانه متناولين كتابهم بشمالهم، اللهم قنا شر ذلك اليوم.

قال الله تعالى:

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

بين الله تعالى نعيم الجنة مقارنا بعذاب النار، فقال: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾، المثل الحالى أو الوصف القريب الذى يسترعى الأفكار والأنظار، والمعنى حال الجنة العجيبة التى فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، تجرى من تحتها الأنها، فتكون متعة النظر، ومتعة النفس، ومتعة النسيم العليل، ومتعة الراحة، والظل الظليل، ومثل مبتدأ خبره جملة تجرى من تحتها الأنهار، ويصح أن يكون الخبر مصدر، تقديره مثل الجنة كجنة تجرى من تحتها الأنهار، وفى ذلك معنى تحقق التشبيه بذكر المشبه والمشبه به، ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾، أى ثمر مستمر، من ثمر نخيل ورمان، ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة]، وغير ذلك من الثمار.

﴿وَظِلُّهَا﴾، وهو معطوف على أكل، أى أن ظلها دائم مستمر، ليس فيها حر لافح، لا يتسخ ظلها بشمس.

ثم يقول تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾، الإشارة إلى الجنة بأوصافها الثلاثة المذكورة، من أنها تجرى من تحتها الأنهار، فتنعم النفس بالمنظر الجميل،

والنسيم العليل، والمنظر البهيج، ومن أن ثمراتها دائمة لا تنقطع، فتنعم بحياة دائمة، ونعيم مقيم، ومن أنها ظل دائم مستمر، وتلك مبتدأ خبره ﴿ وعُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾، أى نهاية الذين اتقوا انتهوا إليها وذكر الموصول للإشارة إلى أن الصلة، وهى التقوى علة تلك العاقبة الحميدة فى ذاتها.

ولقد ذكر فى مقابل هذه النهاية الحلوة المرتبة عاقبة الكفر والأشرار، فقال: ﴿ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾، أى نهاية الكافرين الذين كفروا بالله وبآياته، وبنعمه النار يلقون فيها، وهى دائمة، ﴿ ... كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ... (٥٦) ﴾ [النساء].

والتعبير بـ﴿ عُقْبَى ﴾ فى جزاء الأشرار والأبرار للإشارة إلى أنه جزاء أعقب عملا إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، والله تعالى لا يظلم العباد، وهم الذين يظلمون أنفسهم، وله إرادة مختارة، وعقل مدرك، وإذا كانت الأعمال غير مستوية، فالعقبى غير مستوية، فقال تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) ﴾ [الحشر].

ولقد بين سبحانه وتعالى مكانة القرآن بين أهل الكتاب، فقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ ﴾ ذكر الزمخشرى، وغيره أن الذين يفرحون من أهل الكتاب هم اليهود الذين أسلموا كعبد الله بن سلام، والنصارى من نجران واليمن والحبشة، وعددهم ثمانين رجلا، أربعين من نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من اليمن.

وأولئك ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾، وهو القرآن؛ لأنهم وجدوه مطابقا لما عندهم فى التوراة والإنجيل من تبشير بمحمد ﷺ إذا كانوا يعرفونه فى التوراة والإنجيل، وما أنزل إلى النبى ﷺ هو القرآن الكريم.

وعندى أرى أن الذين آتاهم الله الكتاب يعم من أسلم، ومن لم يسلم، بل يدخل فى عمومه ابتداء من لم يسلم فقد كانوا يفرحون ببعث النبى ﷺ، إذ كانوا فى حرب مع المشركين فى يثرب، ويستفتحون عليهم بأن نبيا قد آن أوانه سينصرهم عليهم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة].

وإن سياق هذا فى هذا المقام يدل على أن الإيمان الصادق ليس مطلوبا من المشركين فقط، بل منهم ومن أهل الكتاب، وأن أهل الكتاب كان ينبغى أن يؤمنوا لمعرفتهم السابقة به؛ ولأنهم كانوا يفرحون به عندما توقعوا مجيئه قريبا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

ويقول سبحانه: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾، أى من الجماعات المتحزبة التى تفهم أن التدين تحزب وتعصب منهم من ينكر بعضه وهو ما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر، فالصدوقيون من اليهود أنكروا البعث وحسبوا الحياة مادة حتى النفس فسروها بالمادة، والنصارى حرفوا التوحيد وقالوا إن الله ثالث ثلاثة وضلوا بذلك ضلالا بعيدا.

ولأنهم أنكر بعضهم اليوم الآخرة، وأنكر بعضهم الوحدانية، رد الله تعالى ذلك عليهم، وذلك بأمره للنبى ﷺ بأنه يستمسك بالوحدانية والإيمان باليوم الآخر، فقال تعالت حكمته: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ كان ما أمر الله تعالى به نبيه أمرين قد أنكراهما، وهما عبادة الله تعالى وحده، وذلك يتحقق فى قوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾، فهذا إثبات للوحدانية فى الذات والصفات والخلق، والعبادة، ونفى لأى شريك فى العبادة، والنصارى أثبتوا الشرك فى العبادة بعبادة ثلاثة ابتداء، ثم لا يزالون يأتون بعبادة آخرين كالعذراء كما يسمونها فى الأوهام التى توهموها فى أنهم رأوا خيالها نوراً، وكعبادة القديسين فى نظرهم، وبذلك أنكروا أصل التوحيد الذى هو أصل الديانات السماوية كلها، وقد دعاهم النبى ﷺ إلى كلمة سواء بينه وبينهم، فى

كتابه إلى هرقل، والنجاشى، والمقوقس، وهذا بعض ما جاء فيه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ... (٦٤)﴾ [آل عمران].

والأمر الثانى الذى أنكره اليهود، وهو اليوم الآخر؛ ولذا قال فيه: ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾، أى إليه وحده مآب أى مرجعى، لا إلى غيره من مسيح ونحوه، فإنه يوم القيامة عبد، كما كان فى الدنيا عبد من عباده الصالحين الأبرار وإن كانت له منزلة الرسل كإخوانه من أولى العزم من الرسل.

وحض الله تعالى بدعوة النبى ﷺ، فقال: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾، أى أدعو إليه وحده، فتقديم الجار والمجرور يدل على أنه لا يدعو إليه غيره، فلا يدعو ابنا، ولا أما لهذا الابن، ولا روح قدس وغير ذلك مما توهمته الأفلاطونية الحديثة، وأخذوه منها كما يؤخذ الباطل من سلسلة الباطل.

وقد بين الله تعالى معنى الرسالة المحمدية فقال عز من قائل:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)﴾.

كذلك، التشبيه بين ما هو كائن، وما قدره الله تعالى، وأحكمه، أى كهذا الذى تراه من نزول القرآن بلسان عربى مبين قدرناه وأحكمناه حكما عربيا، ووصف الحكم الإسلامى بأنه عربى؛ لأن القرآن الذى هو حجته عربى؛ ولأن الرسول الذى بعث به عربى؛ ولأنه من سلالة إبراهيم أبى العرب، ولم يكن من سلالة إسحاق، بل من سلالة إسماعيل ضئضئى العرب.

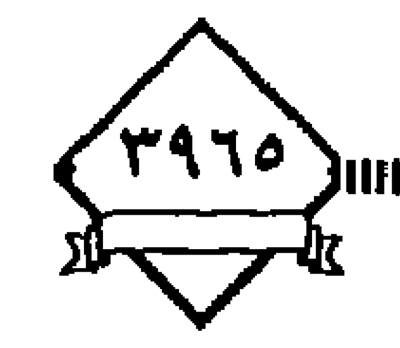
وليس معنى ذلك أنه مقصور حكمه على العرب فتلك فرية، إنما معناه فى الحدود التى ذكرناها؛ لأن القرآن شريعته عامة للناس كافة، لا فرق بين عربى وأعجمى.

ويصح أن يراد من كلمة ﴿حُكْمًا﴾ قرآن، أى أنزلناه قرآنا عربيا، وعبر عنه بحكم؛ لأن ما اشتمل عليه هو الحكم القائم إلى يوم القيامة.

والعربيـة صفة الشريعـة وإن كانت عامة فى تطبـيقها؛ وذلك لأن الشـريعة نزلت، واختـار الله تعـالى نبيـه من بـينهم، ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...(١٢٤)﴾ [الأنعام]؛ وذلك لأن الـعرب من بين الأمم كانوا أعـرف الناس بالله فهم كـما ذكرنا فى عـدة من كتاباتنا كـانوا يؤمنون بأن الله خالق السـموات والأرض ومن فـيهن، ويـؤمنون بأنه واحد فى ذاتـه وصفـاته، ولكنهم كـانوا فى العبـادة يشركون معـه الأوثان، وغيرهم من الأمم التى عـاصرت مبدأ الإسـلام ما كانت فيها معرفة الله تعالى تلك المعرفة فكانت جديرة بأن تكون أرض الدين الذى يدعو إلى التـوحيـد المطلق، إذ كانت فـيه بذوره، فكان عمل مـحمـد ﷺ تقويم سوقه.

وإن ذلك يقـتـضى ألا يتـبـع النبى ﷺ أهواء المشـركين، ولا أهواء أهل الكتاب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الضمير فى ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ يعود إلى المشركين وأهل الكتـاب، وقد وصف بأن ما هو عليه هوى الأنفس، وشهوة العـقل الفاسد، فهو الخاضع للأوهام الذى لا يسـيطر عليه عقل مدرك، ولا جاء من العلم للنبى ﷺ هو علم التـوحيد، وعلم التكليف، وكل ما عداه انبـعث من الهوى وضلال الفكر، وفسـاد الاعتقاد، واللام فى قـوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ هى لام مؤكدة ممهدة للقسم، ومـا جاء بعد ذلك جواب القسم لا جواب الشرط؛ لأنه إذا اجـتمع الشرط والقسم يكون جـواب القسم أولى وأجدر، ويكون دالا على جواب الشرط.

فالكلام فيه قسم مطـوى، وهو تأكيد للحكم، وهو العذاب الذى ينزله الله تعالى، ولا وقاية منه، أيا كان الواقى، والخطـاب للنبى ﷺ، وليس هناك احتمال لأن يتبع النبى ﷺ أهواءهم فما اتبعها قبل أن يبعثه الله رسولا، فكيف يتبعها بعد أن شرفـه الله تعالى بالرسالة الـعامة الخالـدة، وإنما الخطاب له ابتداء، لتقـتدى به أمتـه، وتتبـعه، أو يكـون الخطاب لكل قارئ للقـرآن مخـاطب بأحكامه وبيـانه، وجواب القسم ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ من الله متعلق بواق، ومن الثانية لاستـغراق النفى، أى ليـس لك واقٍ من عذاب الله تعـالى أى واقٍ كان، كـقوله



تعالى: ﴿ ... مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة]. اللهم قنا شر غضبك، واجعلنا فى وقاية من معصيتك، فإنها الوقاية من النار.

الرسل من البشر

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

كان المشركون يقولون: إنه لا يكون رسولا لله تعالى إلا ملك يجىء إليهم، ولا يكون بشرًا، وقد رد الله تعالى فى كلامهم فى أكثر من آية فى ثنايا كتابه الكريم: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام]، وكانوا يقولون: ﴿ ... مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ... ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان].

وفى هذه الآية بين سبحانه وتعالى أنه قد سبق الرسل والأنبياء مثل إبراهيم وإسماعيل، وأولاد إبراهيم من إسحاق فكل أولئك كانوا رسلا وأنبياء وكانوا بشرا، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾، وما

كان لهم مشركين أو أهل كتاب أن ينكروا رسالة رسل كانت لهم أزواج وذرية، وأبو الأنبياء إبراهيم الذى كان شرف العرب، ومجدهم الذى يتفاخرون به كان رسولا، وهم لا يزال عندهم بعض شريعته فى الحج، وهو بانى البيت الحرام بأمر ربه، فقد كان رسولا نبيا، وكان زوجا كريما، ومن ذريته إسماعيل وإسحق وقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ... (٣٩) ﴾ [إبراهيم]، والزوجية لازمة من لوازم البشرية، والملائكة لا يتزاوجون ولا يتناكحون ولا يتناسلون.

ولقد أكد سبحانه رسالة هؤلاء الرسل من البشر، بقدْ، وباللام، وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ رسالتك، فلست بدعا، وكان حقا عليهم ألا يعترضوا بذلك الاعتراض.

هذا الاعتراض الأول الذى كانوا يعترضون به على النبى ﷺ، فهم يحسبون أن الرسول لا يكون إلا ملكا وذلك يناقض ما هو معلوم عندهم من رسالة موسى، ونبوة إسماعيل، ورسالة إسحاق، ونبوة يعقوب عليهم السلام.

الأمر الثانى الذى اعترضوا به المعجزة، فهم يريدون آية غير القرآن تدل على رسالة محمد ﷺ، وكانوا يقولون لولا أنزل عليه، كأنهم لا يعتدون بالقرآن أية معجزة، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا.

وقد رد الله سبحانه كلامهم بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، إن ما كان من شأن الرسول أن يأتى بآية يثبت بها رسالته عن الله إلا بإذنه، فالآية من شأن من أرسله لا من شأنه، فالله هو الذى يرسل، وهو الذى يعطى لرسوله المعجزة التى تثبت أنه يتحدث عن الله، ومثل المعجزة بالنسبة للرسول كمثل الأمارة التى تكون شاهدة بصدق الرسالة عن الله تعالى، فهو سبحانه وتعالى الذى يختارها.

وقد اختار القرآن دليلا على الرسالة، ولكل زمن المعجزة التى تناسبه؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، أى لكل زمن أمر قد كتبه الله تعالى فى قدره،

فكان لزمن موسى ما كتبه من معجزات، وكان لزمن عيسى معجزات كتبها سبحانه وقد كانت معجزة عيسى عليه السلام خرقا لنظام الأسباب والمسببات؛ لأن الزمان كان يناسبه معجزات خارقة لنظام الأسباب والمسببات، وكان عيسى ذاته فى وجوده معجزة خارقة لنظام الأسباب، فكذلك كان إبراؤه للأكمه والأبرص، وإحياؤه للموتى، وإخراج الموتى من قبورهم، فكان هذا مناسبا لأجلها وزمنها، وكان كتاب الله تعالى بها، والزمن الذى عاش فيه ورسالته الخالدة، كان يناسبها، كتاب خالد يتحدى الأجيال جيلا بعد جيل، وهو أعظم من كل معجزات عيسى، وموسى وإبراهيم؛ لأن هذه المعجزات حوادث تنقضى، وتنتهى بزمانها، ولا يراها إلا من شاهدها، ولولا أن القرآن سجلها ما علم بها أحد، أما القرآن فمعجزته خالدة باقية تتحدى الناس جميعا جيلا بعد جيل؛ لأن شريعة محمد ﷺ خالدة، فكانت معجزتها خالدة باقية تدل على صدقها أمام كل الناس فى كل زمان.

وإن كل زمان له معجزته كما ذكرنا، فلا تكون آية صالحة لكل زمان، وإن الله تعالى يمحو كل معجزة إلا فى زمنها؛ ولذا قال تعالى:

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾.

يمحو الله من الآيات ما يشاء محوه منها، ويثبت ما شاء منها، فإذا كانت العصا معجزة فى عصر موسى، وأقامت الدليل على رسالة موسى عليه السلام، فإن الله تعالى نسخها، ولا تكون آية لإتيان رسالة محمد ﷺ، ويثبت له آية أخرى، وهى القرآن الكريم، وإذا كان عيسى له آيات خرقت نظام الأسباب والمسببات، فقد نسخها الله تعالى، وأثبت لمحمد معجزة أخرى تناسب رسالته، وتبقى ببقائها، فيثبتها الله تعالى.

هذا ما نراه تفسيرا للمحو والإثبات، ونرى أنه يمكن أن يكون التفسير الذى يتسق مع ما قبلها وما بعدها من الآيات، فالكلام فى الآيات التى يطلبونها إعناتًا وعنادًا.

وقد قال الزمخشرى عدة معان تحتملها الجملة السامية، وهذا نص ما قاله: «إنه يقول يمحو ما يشاء ويثبت، أى يأتى من الشرائع بما شاء، وينسخ منها ما

يشاء، وعنده أم الكتاب الأصل الذى لا يمحى، ولا يقبل المحو، وهو التوحيد، فشرائع النبيين ينسخ بعضها بعضا، ولكن الأصل قائم، وهو أم الكتاب، أى الشرع المكتوب المقرر فى كل الشرائع، وهو التوحيد، كما قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ... (١٣) ﴾ [الشورى].

وإن هذا يتسق مع قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾.

ولقد قال الزمخشرى فى هذا المعنى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾، ينسخ ما يستصوب نسخه، ويثبت بدله ما يرى المصلحة فى إثباته أو يتركه غير منسوخ، ويسوق أقوالا أُخر.

وإنا نرى أن هذين الوجهين كافيان فى البيان، ويمكن الجمع بينهما بأن يكون المحو، بإلغاء آيات مادية، والإثبات إثبات أخرى، وأن تكون الشرائع السماوية التى جاءت بها الرسل، ينسخ بعضها بعضا، ولكن يبقى الأصل القائم وهو أم الكتاب، وهو التوحيد، والعدل، وإقامة الحق، والإصلاح فى الأرض.

وقد قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير ما نصه:

«العرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشىء أما له، ومنه أم الرأس للدماغ، وأم القرى لمكة، وكل مدينة فهى أم لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلا لجميع الكتب».

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) ﴾.

إن الشرطية مدغمة فى تاء الدالة على توكيد التعليق، وليست زائدة، كما يعبر بعض النحويين، فليس فى القرآن زائد، وإنما الزائد فى إعرابهم، وفعل الشرط هو نرينك، أو نتوفينك، والمعنى إما أن نريك بعض الذى نعدهم من أهوال

تنزل بهم فى حياتك، أو نتوفينك قبل أن ينزل بهم ما نعدهم به، كيفما كانت الحال، فإنه نازل بهم جزاؤهم فى الدنيا ما استقام أهل الإيمان على الطريقة، فإن حادوا عنها، حيد لهم.

وقد تأكد الشرط بما الدالة على التوكيد، وبنون التوكيد الثقيلة التى تلازم «ما» غالبا، وتوكيد الشرط توكيد للتعليق كله، أى أن الارتباط بين الشرط والجواب مؤكد، فإنه إذا لم تر بعض ما وعدهم الله به من عقاب بوفاتك قبله، أو تراه فإنه نازل بهم، وقد أديت ما وجب عليك من تبليغ وبقى أن ينفذ وعيد الله تعالى فيهم، ونعدهم أى الإنذار الذى أنذرهم الله تعالى به، فوعد بمعنى أوعد. وأحسب أن القرآن عبر عن الإيعاد بالوعد فى جملة ما جاء به من إنذار.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ليس هو جواب الشرط، وإنما يدل عليه والجواب مثلا، أنزلنا بهم ما وعدنا، وأريناك مصارعهم، وما عليك أى تبعة من أمورهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾، إنما للقصر، أى ليس عليك إلا البلاغ، وقد بلغت، وعلينا الحساب، العقاب، وعبر عن العقاب بالحساب؛ لأنه جزاء لما فعلوا، ويفعلون، وهو ذاته حساب لهم على ما آذوا المؤمنين وهم مستمرون فى غلوائهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)﴾ [الغاشية].

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى بعض ما ينزل بهم من وعده الذى أنذرهم به.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾.

قال ابن عباس فى معنى ذلك النص الكريم: «أو لم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض ونقصان الأرض من أطرافها، اقتطاعها جزءاً جزءاً من سلطانهم، وذلك بحروبهم مع النبى ﷺ، وإن عذاب الله تعالى الذى ينزله فى

الكافرين جزاء كفرهم يكون بأحد أمرين، إما اجتثاثهم من الأرض، وأخذهم من حيث لا يحتسبون بريح عاصف أو بخسف يجعل عالى ديارهم سافلها، أو بطرق يحيط بهم فلا يبقى ولا يذر، وحيث لا يكون من أصلابهم من يعبد الله، وقد أوقع الله تعالى هذا بالذين بعث فيهم الأنبياء قبل النبى ﷺ من نوح وهود، وصالح، وشعيب.

والأمر الثانى: أن يكون ذلك بالمغالبة، يقاتلون، فيقتلون، ويقتلون، والعاقبة للمتقين، وإن ما نزل بمشركى مكة، واليهود كان من الثانى لا من الأول، لأن النبى ﷺ قال: «إنى لأرجو أن يكون من أصلابهم من يؤمن بالله واليوم الآخر».

ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع بمعنى النفى، ونفى النفى إثبات، فالاستفهام الإنكارى داخل على «لم» والمعنى التنبيه على ما هو واقع بهم، والواقع أنهم يرون أن الله أتى الأرض ينقصها من أطرافها عليهم، وإسناد الإتيان للأرض إلى الله تعالى للدلالة على أن الله تعالى مع جيش المسلمين الذى يأتى الأرض التى لهم النفوذ، والسلطان فيها، ويتلاقون مع سكانهم فى الشرك الذى يجمعهم و﴿نَنقُصُهَا﴾ نأخذها جزءاً فجزءاً من دائرة الكفر، حتى تضيق حوزتهم، وتضيق الدائرة عليهم شيئًا فشيئًا حتى يحيط بهم، ويصلح الرسل من الأرض، وكذلك كان الأمر، فقد كانت الغزوات والسرايا تنزل بالمشركين، وقد ذهبت إلى ما حول مكة وأطراف الجزيرة داعية إلى الله تعالى مجاهدة، فكانت الأرض تنقص من نفوذهم من أطرافها، بسببين:

أولهما: وهو أن دعوة الإسلام تدخل إلى قلوبهم من يسرى إليهم ثلة من جنود المسلمين، وفى ذلك نقص من سلطانهم، وخروج من نفوذ مكة وأهلها.

ثانيهما: أنه يقتل من المشركين عدد، وإن لم يكن كثيراً، إلا أنه يبعدهم عن مكة وأهلها.

وإن إتيان الله للأرض إتيان لقوة الله قوة الحق والإيمان فهو سبحانه يأتى القلوب فتزمن، ويعمرها بالإيمان، وكل عمران بالإيمان، نقص للأرض من سلطان الكفار.

وإذا دخل الإسلام أرضا كان هو الحكم وحده، لا معقب لحكمه، أى لا يخرج منه ويجيء عقبه حكم غيره، فالإيمان الصادق إذا دخل النفوس لا يخرج منها لأنه يكون به سكونها واطمئنانها وقرارها.

وقد قال الزمخشرى، وهو ابن نجدتها ﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ لا راد لحكمه، والمعقب الذى يكر على الشيء فيبطله، وحقيقة الذى يعقبه بالرد والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق، معقب لأنه يعفى غريمه بالاقتضاء والطلب؛ لذا قال لبيد: «طلب المعقب حقه المظلوم»، والمعنى أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾، أى الله وحده يكون الحاكم للنفوس، وليست الأهواء المتحكمة، ولا قهر الأقوياء للضعفاء، إنما هو الرحمة والعدل، ولا حكم يتعقبه.

ويكون للذين كانوا يسيطرون الحساب، وإنه لقريب، وإنه لسريع؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، أى أن الحساب آت لا ريب، وكل آت فهو سريع، لأنه مؤكد الوقوع، وعدد السنين والشهور لا قيمة له ما دام مؤكد الوقوع، وما يكون سريع الحساب يكون شديد؛ لأنه يفاجئ المنكرين من حيث لا يحتسبون؛ ولأن سرعة الحساب يكون لأجل غرض العقاب، ولتحقيق معنى الجزاء، وذلك يكون على قدر ما ارتكب المسيء، والله عزيز ذو انتقام.

قال الله تعالى:

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾

المكر العمل على صرف غيره عن مقصده بحيلة، وأنه يأخذ وصف الذم والحمد، من المقصد الذى قصد الصرف، فإن كان ذلك القصد مذمومًا، فالصرف عنه خير، ما لم يكن السبيل ذاته شرا، وإن كان القصد محمودا، فالصرف عنه مذموم؛ لأن الصرف عن المحمود يوجب الذم.

وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الضمير يعود إلى المشركين، أى مكر الذين من قبلهم الذين ساروا هم على سننهم، وضلوا ضلالا بعيدا مثلهم، ولا شك أن من هذه حالهم مكرهم يكون لتحويل الناس عن إطاعة النبيين، وصرف النبيين لهم عن اتباعهم، وذلك بطرق التدبير السيئ المختلفة من اضطهاد وأذى وسخر بهم، وقيل لهم أحيانا، والشتم والذم فى أكثر الأحيان، فقد سخر قوم نوح منه وممن تبعه، وقالوا ما اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى، وكذلك قوم هود وقوم صالح، وآل مدين قوم شعيب.

وذكر هذا الخبر للمشركين لبيان أنهم لن يضيروا النبى ﷺ، وأصحابه مكرهم إلى هباء، ولا يعد شيئًا بجوار مكر الله تعالى، والتدبير للمؤمنين لينجوا من شرهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، أى لله وحده التدبير الذى يحول القلوب، وقد دل هذا النص السامى على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن مكرهم لا اعتداد به، ولا ثمرة له في تحقيق الغاية التي أرادوها، وهو تحويل الناس عن عقائدهم إذا آمنوا بها.

الأمر الثاني: أن القلوب بيد الله، وهو الذي يهديها، وهو الذي يتركها تسير في مهواة الضلالة، حتى تنهوي فيها.

الأمر الثالث: أن الله مذهب كيدهم، وجعلها في هباء، وناصر أهله.

وإن الله تعالى تدبيره منتج مثمر لا محالة؛ لأنه يعلم ما تكسب كل نفس من خير أو شر، وتتحدث به النفوس، وما تكسبه الجوارح، وهو وحده مقلب القلوب.

قلنا: إن ذكر مكر السابقين لبيان العبرة للمشركين الذين عاندوا النبي ﷺ، ومحاولتهم فتنة المؤمنين لتحويلهم عن دينهم الذين ارتضوه، وفيه إشارة إلى بطلان مكرهم، وإلى أن مكر الله فوقهم، وأنهم إذ يمكرون بالنبي ﷺ، إنما يقاومون بمكرهم مكر الله وتدبيره للمؤمنين أوليائه؛ ولذا قال تعالى مهددا لهم: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ الكفار (ال) فيها للعهد، أي كفار العرب من مشركين ويهود، ومن لفَّ لفهم، والسين لتأكيد وقوع الخبر في المستقبل، والعلم الذي سيعلمونه علم معاينة، لا علم خبر وإخبار، إن تتوالى عليهم الهزائم هزيمة بعد هزيمة حتى تصير الأرض العربية كلها تحت ظل الإسلام الظليل، ويخرج المشركون من رجس الوثنية، والفساد اليهودي المنحرف، وتكون الكلمة العليا لله ولرسوله، وللمؤمنين، ومن بقي على كفره يعلم علما آخر بعقبى الدار في جهنم للكافرين، والجنة للمؤمنين.

وقوله: ﴿**لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ لِمَنْ جار ومجرور، والمعنى لمن تكون عقبى الدار، أي عاقبة هذه الحياة الدنيا التي تكون فيها هذه المغالبة بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، وإن العقبى هي غلب الإيمان في الدنيا، والجنة لمن آمن في الآخرة، والنار لمن عصى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ولقد اشتد المشركون فى الإنكار، ومالأهم على ذلك اليهود.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾.

ذكر سبحانه بعض مكر المشركين وغيرهم التى يقصدون بها تحويل المؤمنين وفتنتهم عن دينهم، فذكروا أنهم يقولون للنبى ﷺ: ﴿ لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾، فهم يسلمون بأن لله رسالة، ولكن لست من أصحابها، فالله لم يرسلك، وهم بهذا ينكرون رسالة محمد ﷺ، وينكرون أن يكون له معجزة دالة على هذه الرسالة، ويريدون آيات أخرى غير القرآن، إذ لا يعدون القرآن آية، وما كان للنبى أن يأخذ كلامهم أخذ من يعتبره، وقد قام الدليل عليه بالتحدى، وإدراك أهل الذكر منهم ما فيه من نسق، ووثيق نظم؛ ولذا أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾، أى كفا الله شهيدا بينى وبينكم، فهو الحق وشهادته الحق، وليست شهادته كلاما يردد، ولكن شهادته معجزة تفحم، وقد جاءت الخوارق تترى بشهادة الحق فى كل ما ترون من حياته، وما أحاط بها، وما دبرتم وقد رد تدبيركم فى نحوركم، وقوله تعالى: ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فيه تهديد لهم بما يكون لإنكارهم من عواقب وخيمة عليهم تنصر أهل الحق.

ويصح أن تقول: ﴿ شَهِيداً ﴾ معناه حاكم؛ لأن الشهادة تجىء بمعنى الحكم، كما فى قوله تعالى: ﴿ ... وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ... (٢٦) ﴾ [يوسف]، والمعنى وكفى بالله حاكما بينى وبينكم، ويرشح لهذا المعنى عبارة بينى وبينكم، فالحكم هو الذى يكون بين اثنين، وأما الشهادة فتكون لأحد الفريقين على الآخر.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ الكتاب إما أن يراد جنس الكتاب، ومن عنده علم الكتاب هو العالم بالكتب السماوية قبل تحريفها، فإنها تشهد بنبوة محمد ﷺ، وتحكم بأنه رسول، هذا التبشير بالنبى ﷺ فى التوراة والإنجيل،

ولا يزال آثاره معها باقية إلى اليوم تعرف برموزها لمن عنده علم بالكتاب، هذا إذا كان المراد جنس الكتاب، ومن عنده علم بكتاب أهل الفقه المخلصين من الكتابيين.

وإذا أردنا الكتاب وكانت (ال) للعهد، يكون المراد هو القرآن الكريم، ومن عنده علم القرآن هو العليم بأساليب الكلام العربى يعرف شعره ورجزه، وإرساله ونثره، ويعرف ما فى الكلام، كما روى عن فصحاء العرب، فإن هؤلاء يشهدون بإعجازه كما يقول قائلهم: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، ما يقول هذا بشرا، وإنه ليعلو، ولا يُعلى عليه.

هذا وإنى أرى الوجه الثانى، وكلاهما عميق فى معناه.

* * *



تمهيد:

سورة إبراهيم مكية إلا الآيتين ٢٨، ٢٩، وعدد آياتها اثنتان وخمسون آية، وسميت سورة إبراهيم لما فيها من قصص إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق، وسكن إسماعيل وذريته بجوار بيت الله المحرم، ولكن لم يتخذ شخص إبراهيم عليه السلام محور السورة، كما كان الشأن فى سورة يوسف عليه السلام.

ابتدئت السورة الكريمة بالحروف المجردة وهى ﴿الر﴾ ثم ذكر الكتاب الكريم وأن الله أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد، وذكرت السورة ملك الله للسموات والأرض وما فيهما، وأن الويل للكافرين بآياته الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدون عن سبيل الله تعالى ويبغونها معوجة، وأولئك فى ضلال مبين.

ويذكر الله سبحانه أنه ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء، وهو العزيز الحكيم.

وبعد ذلك يشير الله سبحانه إلى طرف من قصة موسى وقومه، فيذكّر سبحانه على لسان موسى بنعمته عليهم إذ أخرجهم من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب، ويبين سبحانه وتعالى أنهم إن شكروا زادهم نعما على نعم، ويقول موسى لقومه ﴿...إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾.

ويشير سبحانه من بعد ذلك إلى أبناء قوم نوح وعاد والذين من قبلهم لا يعلمهم إلا الله، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم، وعضوها غيظا، وقالوا إنا بما أرسلتم به كافرون، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب.

ويحكى سبحانه وتعالى دعوة الرسل عامة، ومجاوبة المشركين المتشابهين عامة، قالت لهم رسلهم: ﴿ ...أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ... ⑩ ﴾ فيرد عليهم الكافرون وهو رد متحد عند الكافرين جميعا، قد انبعث عن جحود واحد فاتحد. . قالوا: ﴿ ... إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ⑩ ﴾.

وكان رد الرسل واحدا ﴿ ...إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ⑪ ﴾، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن نأتيكم إلا بإذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون، وقد قرروا أنهم لا يتوكلون إلا على الله، وليصبرن على أذى أقوامهم.

ولقد كان الإيذاء متحدا من الكافرين، إذ اتحد السبب المنبعث منه وهو الجحود، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ⑬ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ⑭ ﴾.

وإنه من بعد ذلك الخزى فى الحياة الدنيا يكون العذاب الشديد، ﴿ ...وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ⑯ يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ ... ⑰ ﴾.

وقد مثل الله تعالى أعمال الذين كفروا فى الكفر بأن ﴿ ...أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ⑱ ﴾.

ثم بين بعد ذلك خلق السموات والأرض ﴿ ... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ⑲ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ⑳ ﴾، وقد صور الله سبحانه وتعالى حالهم يوم القيامة، إذ تجادل الضعفاء والذين استكبروا ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ... ㉑ ﴾، قال

الذين استكبروا ﴿ ... لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا من مَّحِيصٍ (٢١) ﴾.

ويدخل الشيطان فى المجادلة فيقول: ﴿ ...إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾.

وقد ذكر سبحانه بعد ما كان بين المشركين ضعفاء ومستكبرين والشيطان، ذكر سبحانه وتعالى إدخال المؤمنين الجنة.

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣) ﴾.

وقد ضرب سبحانه مثلا يفرق بين الإيمان والكفر بالفرق بين الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، فالكلمة الطيبة ﴿ ... كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) ﴾، والكلمة الخبيثة ﴿ ...كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا من قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) ﴾.

وذكر سبحانه أن حال الكافرين حال عجيبة تثير الاستفهام، فقد ﴿ ...بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾؛ وذلك لأنهم جعلوا لله أندادا من الحجارة، وقد صاروا بذلك غير مدركين حقائق أمورهم، وجديرون بأن يقال لهم ﴿ ...تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) ﴾، وذكر فى مقابل ذلك المؤمنين الذين لم يبدوا نعمة الله كفرا، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال.

ولقد ذكر الله نعمه على خلقه، فهو ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾.

ولقد ذكر الله تعالى بعد ذلك خبرا صادقا عن إبراهيم أبى العرب، وكيف كان يدعو الله ولا يعبد الأصنام، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾. وأخذ يدعو لذريته فى البلاد العربية بسعة الرزق فقال:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾.

ذكر الله سبحانه وتعالى أدعية إبراهيم ليكون ذلك تذكيرا لذريته من العرب، ليتركوا الأوثان ويتجهوا إلى الضراعة إلى الله تعالى كضراعة جدهم أبى الأنبياء إبراهيم.

ولقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك أن الله لا يخلف وعده رسله يوم القيامة، فقال عز من قائل: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ

هَوَاءٌ (٤٣) ﴾، وقد أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن ينذر قومه بيوم القيامة، وبما كان قد نزل بمن قبلهم، فقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾.

ولقد حذر الله تعالى من نزول وعده، وذكر سبحانه أنه في يوم القيامة يكون الجزاء، تجزى فيه كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب. ﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ (٥٢) ﴾.

معانى السورة الكريمة

قال الله تعالى:

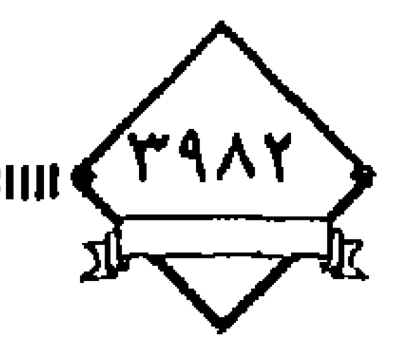
الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

تكلمنا فى هذه ﴿الر﴾ وذكرنا أنها من المتشابه الذى اختص به علم الله تعالى، وأشرنا إلى بعض ما نحاول أن نتعرف به الحكمة فى وجوده، وما كان من الله ما يسوغ أن يوصف بأنه جاء لغير حكمة وإن خفيت على العقول جلها أو كلها. وهذه الحروف إذا جاء بعدها ذكر الكتاب كانت مبتدأ والكتاب خبره، وهى هنا كذلك، فقوله تعالى: ﴿الر﴾ مبتدأ خبره ﴿كِتَابٌ﴾، ويكون الابتداء فيه إشارة واضحة إلى أن هذا الكتاب مكون من تلك الحروف التى يتكون منها كلامكم، ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثله، فلا يدل هذا على أنه من عند أمثالكم من البشر، بل من عند خالق البشر، ويرشح لذلك كون الكتاب خبرا لهذه الحروف.

و﴿كِتَابٌ﴾ التنكير فيه للتعظيم، والمعنى كتاب عظيم الشأن لا يدرك كنهه، ولا تحيط به أفهام البشر، إلا إذا كان ذلك بتوفيق من الله، وما يعلم تأويله إلا الله، وأضف إلى ذلك ما يقوى مكانته أو يحققها، وهو أمران ذكرهما الله تعالى:

الأمر الأول: أنه أضافه إلى الله تعالى على أنه نازل من لدنه فى سموه سبحانه، إلى منتهاه فى نزوله إلى النبى ﷺ، وهذا هو قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾، وبالإضافة إليه سبحانه بضمير الجمع؛ لأنه الضمير العائد إلى الله خالق الوجود كله، عاقله وغير عاقله، إنسه وجنه، وهو الحكيم الخبير.

الأمر الثانى الذى يكشف عن عظمة الكتاب: وهو شرف ذاتى فوق شرفه الإضافى بالنسبة إلى الله تعالى، وهو أنه يخرج الناس - إذا أدركوه - من ظلمات الضلال إلى نور الهداية وذلك بتبليغ محمد ﷺ له، وهذا هو قوله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فهذا النص السامى يدل على أن القرآن هاد ومرشد يخرج به النبى ﷺ الناس من الضلال إلى الهدى بإذن الله، ففى ذلك ثلاثة معان: أولها: أن الضلال كالظلمة، وثانيها: أن الهداية كالنور، وثالثها: أن الأمور كلها بتوفيق من الله، فمن سلك سبيل الهداية وصل إلى الغاية، ومن سلك طريق الضلال وصل إلى نهاية الضلال البعيد.



وعلى ذلك ففى التعبير بالظلمات والنور استعارة، تشبيه الضلال بالظلمة؛ لأن السائر فيها كالسائر فى ظلام لا يعرف طريقه فيكون فى حيرة دائمة لا ينتهى فيها إلى حق واضح ولا إلى طريق لاجب، وشبهت الهداية بالنور؛ لأن من هداه الله تعالى يكون فى نور يعرف به طريقه الهادى المرشد إلى أقوم طريق وأهدى سبيل.

وقد عرف الله سبحانه وتعالى بالبيان إلى أن النور صراط الله العزيز الحميد.

الصراط: الطريق المستقيم، وهو أقرب ظريق للوصول إلى الحق، وهو فى هذا الوصف العظيم مضاف إلى الله تعالى فيزداد شرقا وتكريما، وهو صراط العزيز الذى لا يقهر، وهو فوق كل شىء والغالب على كل أمر وحده، ومن سلك طريق الحميد، فإن العاقبة فيه محمودة، فهو محمود فى ذاته ومحمود فى غايته ونهايته.

ومن سلك غيره ذل، ولا يحمد العاقبة، والعاقبة هى السوءى.

وقد ذكر سبحانه القلوب المظلمة، فقال عز من قائل: ﴿**اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** (٢)﴾.

صدر سبحانه الجملة التى فيها كمال سلطان الله تعالى فى الوجود بلفظ الجلالة، لتربية المهابة فى نفس القارئ؛ ولأن ذلك يتلاقى مع سلطان الله الكامل، و﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ للدلالة على ملكيته لكل ما فى السموات، وتكرار ﴿**مَا فِي**﴾ لدلالة على كمال استغراق الملكية له سبحانه وتعالى، وهو على كل شىء قدير، مالك كل شىء، وذكر سبحانه ملكيته لما فى السماء والأرض وذلك يقتضى ملكيته لهما؛ لأن ملكية ما يشتملان عليه يقتضى - لا محالة - ملكيتهما، إذ ملكية المظروف تقتضى ملكية الظرف، وإن الملكية الكاملة لهذا الوجود كله بما فيه من أجرام، وأحياء عاقلة وغير عاقلة يتضمن أنه يملك الأنداد، وأنها وعُبادها فى قبضته سبحانه العليم بكل شىء، وفى ذلك برهان قاطع أنها غير جديرة بالعبادة؛ ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذكر سلطان الله تعالى فى الوجود

كله، وأنه لا سلطان لغيره ذكر بعض مقتضياته، وهو كفر من يعبد الأوثان، واستحقاقه للعذاب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ الويل: الهلاك، وقال الزجَّاج: هى كلمة تقال للعذاب والهلاك ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ فى ذاته، وفى هذا إنذار ووعيد، والمعنى هلاك لهم من عذاب شديد. وكأن المعنى كما يقول الزمخشرى: يولولون من عذاب شديد، ويصيحون قائلين يا ويلاه.

ونبه هنا إلى أمرين:

أولهما: أن ذكر الويل ينزل بالكافرين، هو فى مقابل الذين يسلكون صراط العزيز الحميد، من حيث إنهم يكونون فى عزة بعزته سبحانه وتعالى، وعاقبتهم محمودة بسلوكهم طريقه المحمود، أما الذين لا يسلكون الطريق ويخالفون مقتضى الملكية الثابتة لله تعالى فى السموات والأرض ومن فيهن، فإنهم يكونون فى ويل من عذاب شديد.

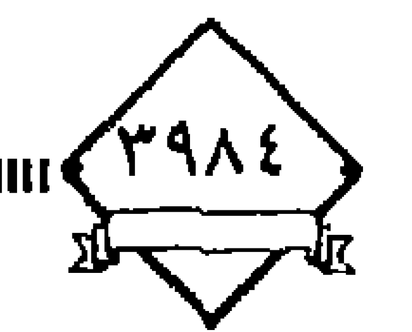
وثانيهما: الله مالك كل شيء، حتى لقد قرر الفقهاء أن ملكية الناس للأشياء ملكية نسبية وليست ملكية حقيقية؛ لأن المالك فى الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

وقد بين سبحانه وتعالى صفات الكافرين الذين لهم الويل من عذاب شديد، لا يكتنه كنهه، ذكر سبحانه أوصافهم الظاهرة، فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٣)﴾.

وصفهم سبحانه وتعالى فى هذه الآية بثلاث صفات، وختمها بجزائهم المستحق من هذه الصفات والمترتب عليها:

الصفة الأولى: أنهم ﴿يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾، (استحب) السين والتاء للطلب، فمعنى استحب الحياة، أى طلب حب الحياة الدنيا، وهذا يستفاد منه أولا الرغبة الشديدة فى الحياة بمعنى اللجاجة فى طلبها، ويستفاد منه



ثانيا أنه يختارها على الحياة الدنيا، ويترك الآخرة تركا، كما يُترك كل مهجور، ولقد قال فى ذلك الزمخشرى: «هم الذين يستحبون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبة؛ لأن المؤثر للشىء على غيره كأنه يطلب منه نفسه أن يكون أحب إليه وأفضل عنده من الآخرة».

والصفة الثانية: أنهم لا يكتفون بإيثارهم الدنيا على الآخرة، بل يصدون عن سبيل الله، أى يقفون مترصدين السبيل يصدون عنها بمنع الناس منها، وقرأ الحسن البصرى ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ بضم الياء وكسر الصاد، والمعنى أنهم أعرضوا عن سبيل الله، وحملوا غيرهم على الإعراض عن سبيل الله تعالى، وذلك بالجمع بين القراءتين، وصدهم عن سبيل الله بالدعوة إلى عدم الدخول، كما كان يذهب أبو لهب إلى حيث النبى ﷺ إلى القبائل يكذّب النبى ﷺ ويدعوهم إلى الإعراض أو عدم الاستماع، وأشد الصد عن سبيل الله إيذاء المتبعين لسبيل الله وتعذيبهم ليحملوهم على الردة عن دينهم، وسبيل الله هو صراط العزيز الحميد، وهو طريق الحق والهداية وتوحيد الله تعالى.

والصفة الثالثة: أنهم يبغونها عوجا، أى يطلبونها راغبين ملحفين أن تكون معوجة غير مستقيمة، بل يطلبونها ناكبة عن الطريق غير سالكة سواء السبيل، يبغونها زيفا ويطلبون الاعوجاج كما كانوا يريدون محمدا ﷺ أن يكون عن سب آلهتهم ويدعونه إلى اتباع آبائهم، وكأنه جاء ليردد ما عندهم، لا ليهديهم ويرشدهم إلى الطريق الأقوم.

ولقد بين سبحانه بعد ذلك الوصف الجامع لهم، ولذى سيطر عليهم فقال: ﴿أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ الإشارة إليهم محمَّلين بهذه الأوصاف التى استحبوا بها الحياة الدنيا وصارت خلب أكبادهم وآثروها على الحياة الآخرة، ورضوا بالدنية عن الحياة العزيزة الكريمة فى الآخرة، وصدوا عن سبيل الله وبغوا الحق معوجا غير مستقيم ﴿أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

الضلال ضد الهداية، وضلال الطريق أن يسير فى متاهة يتيه فيها، وكلما أوغل فى المتاهة ازداد ضلالة وبُعد عن الغاية والنجاة من المتاهة، فهؤلاء بحبهم للدنيا دون الآخرة، وصدهم عن سبيل الله وإرادتهم الزيغ دون الحق أمعنوا فى متاهة الباطل، فبعدوا بضلالهم، وغابوا عن الحق وسواء السبيل.

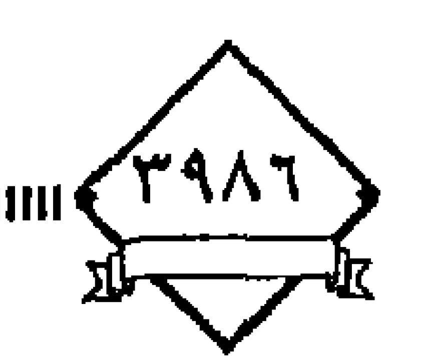
والبُعد إما أن يكون وصفا للضلال، ويكون معنى ذلك أنهم أوغلوا فى الضلال إيغالا حتى بعدوا عن الطريق السوى الموصل إلى الغاية المنشودة والذى هو طريق السلامة.

وإما أن نقول إنه وصف للضال نفسه، وذكر السياق وصفا للضلال من قبيل المجاز المرسل الذى يجعل المصدر هو الموصوف، والحقيقة أن الوصف هو للضال، والله أعلم.

ولقد بين القرآن الكريم حقيقة ثابتة فى الرسالات الإلهية، وهى أن يكون الرسول بلسان قومه، فقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) ﴾.

﴿ مِن ﴾ هنا لاستغراق النفى ثم الإثبات، أى ما أرسلنا أى رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، وهذا النص الكريم يفيد أنه سبحانه لا يرسل رسولا إلا بلسان قومه الذين بعث من بينهم، وأن البيان الأول يكون لهم ثم ينبعث نور الدعوة من ورائهم، وكذلك كان النبيون، فعيسى عليه السلام بعث بلسان قومه وكانت دعوته بلسان قومه وهو العبرية، وعمت دعوته ابتداء بلسان قومه، والأناجيل التى حكت مواعظه فى الجبل والسفح كانت بلغة قومه ابتداء، فإذا كانت قد ظهرت بغير لغته ولغة قومه، بل بلغة أعدائهم فإن السند يكون حينئذ منقطعا بين الرسالة ومن أرسل فيهم، بل بينهم، وبين الرسول ذاته، ولذا كان تحريف القول عن موضعه.

وموسى من قبل عيسى ـ عليهما السلام ـ بعث أيضا بلغة قومه وهم بنو إسرائيل ابتداء، ثم كانت لغة فرعون عندما خاطبه هو هارون.



وكذلك محمد ﷺ، قد بعث بلغة قومه الذين كانت دعوته الأولى بينهم وانبعث نورها منهم ولكنها كانت عامة، كما قال تعالى عن نبيه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... (١٥٨)﴾ [الأعراف]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ... (٢٨)﴾ [سبأ]، وكما قال ﷺ: «**بعثت للأحمر والأسود**»[1].

وكونه بلسان قومه لا يفيد أنه كان للعرب خاصة، فذلك لما قصته الآيات القرآنية الصريحة والأحاديث النبوية الشريفة والوقائع التاريخية الصادقة، فإن دعوته دخل فيها صهيب الرومى، وبلال الحبشى، ثم سلمان الفارسى، وذكر ﷺ أن هؤلاء يصورون أجناسهم فى الدعوة المحمدية، ولم يلبث النبى ﷺ بعد أن عمَّت دعوته الجزيرة العربية أن بعث إلى هرقل ملك الروم، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى المقوقس عظيم القبط، يدعوهم إلى الإسلام، وهكذا.

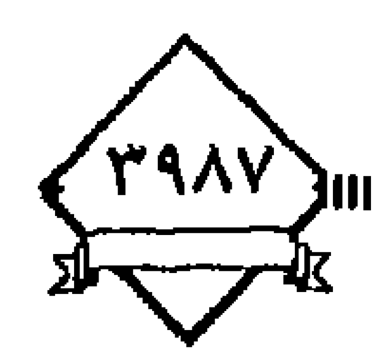
إذن فالدعوة كانت للناس قاطبة، ولكنها ككل دعوة حق تبتدئ فى أضيق دائرة، ثم تتسع شيئًا فشيئًا حتى تصير نورا ساطعا يعم الأكوان، فابتدأت الدعوة فى أسرة الرسول وأصدقائه ثم دعيت عشيرته، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء]، ثم كان الصدع بالدعوة والجهر بها ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾ [الحجر]، ثم كانت فى القبائل العربية، ثم تجاوزت ربوع الصحراء العربية إلى أرض كسرى وقيصر وسارت إلى الحبشة بعد أن عمَّت ربوع اليمن.

وقوله تعالى فى مقابل إرسال الرسول عن قومه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

ذكر سبحانه أن البيان الأول يكون لقومه، ثم يكون بعد ذلك لغيرهم.

---

(١) من حديث ابن عباس، أخرجه أحمد، ومن مسند بنى هاشم ـ بداية مسند عبد الله بن عباس (٢٦٠٦).



والآن ونحن نرى الاختلاط الفكرى بين البشرية، حتى إن الأمر ليقع فى أرض فيذيع خبره، بعد أقل من ساعة فى كل أنحاء الأرض، لا نعجب فى أن يكون بعث الرسول بلغة ويعم علمه بعد ساعة من نهار أو ليل كل بقاع الأرض، ولكن العجب فى أن يكون فى الماضى البعث بلغة والدعوة عامة، هذا ما أثاره وبينه الزمخشرى، وهذا ما قاله سننقله بطوله:

«فإن قلت لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس كافة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... (١٥٨)﴾ [الأعراف]، بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم يكن للعرب حجة فلغيرهم حجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة، فلو نزل بالعجمية لم يكن للعرب حجة أيضا، قلت: لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة لنزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل، فبقى أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما نرى الحال ونشاهد من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم، مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم فى تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك جلائل الفوائد وما يتكاثر فى إتعاب النفوس وكذا القرائح فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب؛ ولأنه أبعد من التحريف، وأسلم من التنازع والاختلاف. . . .»[1].

وننتهى من كلام الزمخشرى إلى أمرين: أولهما: أن نزول القرآن والدعوة المحمدية كانت باللغة العربية؛ لأنها كانت لغة النبى ﷺ فكانت أقرب إليه؛ ولأن القرآن المعجز إذا كان باللغة عانى غيرهم من حفظ لفظه وتفهم معانيه، وفى ذلك ثواب أولا، وصون للقرآن عن التغيير والتبديل فيه ثانيا.

---

(١) الكشاف: ٢/ ٣٦٦.

ويشير إلى أنه لو نزل بكل اللغات، وكان معجزا فيها جميعا لكان الإيمان بالإلجاء لا بالاختيار وله فى ذلك نظرة.

وإنه يجب أن نلاحظ أمرين:

أولهما: ما قاله الشافعى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يجب أن يعرف كل مسلم قدرا من اللغة العربية يصحح به دينه.

وثانيهما: أن جعل القرآن باللغة العربية، ومحاولة الأعاجم أن يحفظوه يقرب بين اللغات، وحيث قربت اللغات قربت العلاقات الإنسانية.

وكان ذلك قائمًا يوم كانت الوحدة العربية قائمة، وكانت اللغة العربية جامعة لهم وفيها دونت ثقافاتهم وكانت وعاء للعلم الإسلامى، فلما انبعثت اللغات الإقليمية من مراقدها ذهبت الوحدة وتفرقت الكلمة.

ونعود إلى الكلام فى معنى الآية الكريمة ﴿**لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾، أى أنه يترتب على البيان أن يسير بعض الناس فى طريق الضلالة، إذ يكذبون، ولا يصدقون، ويهدى الله تعالى من يسير فى طريق الهداية، فيأخذ بيده إلى غايتها.

وهنا يسأل سائل لماذا قُدِّمت الضلالة على الهداية؟ ونقول فى الجواب عن ذلك إن الآيات سبقت لبيان إنذار الضالين، فهم موضع الإنذار؛ ولأن الشيطان قريب من نفوس البشر؛ ولأن الأهواء تجعل حكم الضلال هو الأغلب.

وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ لبيان أن الكفار مهما يكن سلطانهم وقوتهم وحسبانهم أنهم لن يغلبوا، ويذهب بهم غرورهم إلى زعم أنهم العالون، فالله تعالى هو واهب العزة، وهو العزيز الذى يذلهم، ويجعل لأهل الإيمان الكلمة العليا، وهو الحكيم الذى يدبر الأمور بحكمته، وبعلمه الذى وسع كل شيء، فهو يمهل الكافرين ويملى لهم، كما قال عز من قائل: ﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** (٤٥)﴾ [القلم] يملى لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

من نبأ موسى عليه السلام

قال تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

فى الآية السابقة ذكر سبحانه وتعالى أنه لا يرسل رسولا إلا بلغة قومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويبين لهم فيضل من يضل، ويهتدى من يهتدى، وفى هذه الآية وما يليها من آيات يبين الله أخبار نبى من أولى العزم بعث فى قومه، وغيرهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويذكرهم بأيام الله تعالى من وقائع من نزلت بمن سبقهم من الأمم، وما نزل بهم هم من نعم، وهو موسى ﷺ، وقد أخرج الله على يدى موسى بنى إسرائل قومه من فرعون وظهرت آياته فيهم، ومع ذلك ضلوا من بعده، وفى حياته.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أكد الله تعالى إرسال موسى إلى قومه بـ(اللام) وبـ(قد)، وقومه أهم بنو إسرائيل وحدهم أم قوم موسى كل من أرسل إليهم؟ ظاهر القول بادئ الأمر أنهم بنو إسرائيل؛ لأنهم قومه وجنسه أو قبيله، ولكن موسى لم يرسل لبنى إسرائيل وحدهم، إنما أرسل إلى سكان مصر وفيهم فرعون، وقد قال تعالى فى رسالة موسى وأخيه هارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه].

وهذه تدل على أنه بعث لمصر كلها، لا لبنى إسرائيل وحدهم، وإن كانت فضائل الرسالة عادت على بنى إسرائيل بالنعمة والإنقاذ ابتداء، والهداية للجميع كانت المقصد فى نهاية الرسالة وغايتها وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾.

وردت أخبار من السلف بأن أيام الله، الوقائع التى انتصر الله فيها لكلمة الحق والإيمان، كما نزل بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وآل مدين؛ وذلك لأن كلمة (أيام) تطلق فى التاريخ العربى على الحروب التى كانت لها دوى فى العرب كحرب «ذى قار» الذى انتصر فيها العرب على فارس، وكحرب «الفِجَار»، وكحرب «عبس وذبيان»، وكحرب «البسوس»، إلى غير ذلك من الأيام الشداد.

وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن أيام الله هى النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل، والأيام التى أنزل بها اعتبارا لأهل مصر ليسلموا، فقد أنزل عليهم تسع آيات هى: الطوفان والجراد والقمل، والضفادع والدم والعصا، ويده إذ تخرج بيضاء من غير سوء، والسنين ونقص من الثمرات.

ويمثل عبارات بعض المفسرين إلى أن الأيام التى طلب الله تعالى من موسى أن يذكرهم بها تعم أيام المحنة التى نزلت ببنى إسرائيل وأيام النعمة، وقال الطبرى فى ذلك: وعظهم الله تعالى بما سلف من الأيام الماضية لهم، أى بما كانوا فى أيام الله تعالى من النعمة والمحنة، وقد كانوا عبيدا مستذلين.

وهكذا نرى أن ابن جرير يخص الأيام بأيام الله تعالى فى بنى إسرائيل محنة ونعمة.

والحق أن أيام الله تعالى تعم أيام الشدائد، وأيام النعم، وتعم بنى إسرائيل ومن سبقهم من الأمم كقوم نوح إلى آخره، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى تلك الأيام ببعض التفصيل بذكر النعم والنقم معًا.

وهذا بحث نحوى أشار إليه المفسرون اللغويون، وهو يتعلق بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فيقول: أرسل الله موسى مؤيدًا بالآيات التسع التى أشرنا إليها قائلا له: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أى من الضلال الذى هو كالظلمات المتكاثفة إلى الحق الذى كالنور الواضح البين، ويصح أن نقول: إن ﴿أَنْ﴾ تفسيرية، أى إن ما بعدها تفسير لمعنى الرسالة، وجوَّز الزمخشرى أن ﴿أَنْ﴾ مصدرية ولا مانع من دخولها على الأمر؛ لأنه فعل، ويكون المعنى: أرسلنا موسى إلى قومه بإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وقد بينا أن قومه تعم كل من بعث إليهم، وهم بنو إسرائيل، وأهل مصر، وقد كانت دعوته ـ عليه السلام ـ فيهم.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى إخراجهم من الظلمات إلى النور والآيات الدالة على رسالته، والأيام باشتمالها على النعم التى جاءت إليهم وأفاضها عليهم، والشدائد التى نزلت بغيرهم، ﴿لَآيَاتٍ﴾ أى لأمارات هادية مرشدة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وجاء ذكر الصبر بصيغة المبالغة، وذكر الشكر بصيغة المبالغة أيضا، للدلالة على أن من يعرف هذه الآيات ويدركها هو الذى صار الصبر بتمرسه له صفة كالجبلة فيه، وصار شكر النعمة والقيام بحقها كذلك، وقالوا: إن المراد الصبر على البلاء، والشكر على النعماء، وإلى أن الصبر كما يكون فى النقمة يكون أيضا فى النعمة، والصبر بالنعمة ألا تدفعه إلى الغرور، والأشر والبطر، كما قال تعالى: ﴿... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ... (٣٥)﴾ [الأنبياء]، والنقمة أيضا تحتاج إلى الشكر، إذ تذكر بما أنعم وأكرم فى حال البلاء والاختيار، فيكون الشكر على ما أسلف على رجاء الإنقاذ مما أوقع، ثم يكون الشكر على الماضى والحاضر.

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى بعض ما أنعم، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف زمان للماضى، والخطاب لمحمد ﷺ يذكر بنعم الله تعالى على المظلومين، وأنه سبحانه ينقذهم من أذى طاغية الدنيا فى عصره، وهو فرعون، وإن هذا إيذان بأنه ينقذ النبى ومن معه من المشركين، وجاعلا لهم السلطان عليهم، وقوم موسى هنا متعين أن يكون لبنى إسرائيل، وإن كان قوله: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لا يخصهم، بل يشملهم وغيرهم.

يقول لهم رسول الله الذى أنقذهم على يديه: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، أى أصحاب فرعون ونصرائه ومعاونيه على الشر، ونرى

أن فرعون فى أكثر الآيات المثبتة لظلمه القاسى الغاشم لا يذكر فرعون وحده، إنما يذكر ملؤه أو آله، أو غير ذلك مما يدل على المؤازرين له، وهذا ينبئ بمعنى أن سنة الله تعالى فى خلقه أن الطغاة لا يطغون بذات أنفسهم، ولكن بمؤازرة من الأشياع والأتباع، ولو كانوا مرشدين ما كان منهم ذلك الظلم الغاشم فهم آثمون معهم.

وقد كانت النجاة أو الإنجاء من أقسى المظالم الإنسانية، بشاعة وقسوة، كما حاول من ساروا على دأبه ـ أسكنهم الله معه فى السعير، فهم وهو على سواء، إلا أنهم أشد؛ لأنهم جاءوا بعد أن جاءتهم البينات.

و﴿إِذْ﴾ بدل من الأولى، وقد بين الله تعالى ما أنجى منه فقال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أى يذيقونكم أشد العذاب سوءا من استرقاق، وإذلال وتكليفكم المشاق الغلاظ الشداد، أو استباحة لكرامتكم، وإبعادكم عن أماكن السلطان وجعلكم أرذالا تابعين، ولم يجعل منكم سادة متبوعين، حتى أنقذكم الله من هذا فجعلكم سادة أنفسكم، وعبر عن ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿... وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا... ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة]، أى مسيطرين على أنفسكم ولستم خاضعين لغير الله تعالى، وقال سبحانه وتعالى مع هذا الإذلال والاسترقاق ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فى سورتى البقرة والأعراف ﴿... يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ... ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف] من غير (واو)، فكان هذا تفسيرا لسومهم العذاب، وهو بيان بأفصح أحواله، وهنا جمع بين الاسترقاق والذل والتكليف بالمشاق والأهوال، وبين ذبح الأبناء واستحياء النساء.

وعبّر عن قتل الأبناء هنا بالذبح للإشارة إلى أنهم فعلوا ذلك، وهم آمنون سالمون غير ثائرين ولا ناقمين، فهم فى غير اندفاعة ثورة، ولكن فى أمن ودعة، يأتون إلى الطفل من حجر أمه أو بين لداته ويذبحونه ذبحا، وحسبك أن تعلم أن أم موسى رضيت ـ بإلهام من الله ـ أن تلقيه فى اليم مع رجاء الله تعالى، عن أن تراه يذبح بين يديها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، أى يطلبون حياة نسائهم وبقاءهن، لا رغبة فى ذات الإحياء بل ليكنَّ إماءً فى بيوتهم، ويستمتعون بجمالهن، فهو ظلم فاحش لا يعرفه إلا فرعون وأمثاله، كما رأينا واحدا منهم فى هذا الزمان.

قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، الإشارة إلى الإنجاء، ويصح أن تكون الإشارة إلى سوم العذاب، وعلى الأول يكون البلاء هو بلاء بنعمة الإنجاء، كما أشرنا إلى قوله تعالى: ﴿... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ... (٣٥)﴾ [الأنبياء]، فالنعمة تحتاج إلى صبر واختبار، وإذا كانت الإشارة إلى سوم العذاب وتذبيح الأطفال واستحياء النساء يكون اختبارا من الله عظيما، ونسب البلاء إلى الله تعالى، وهو الرب الخالق، للإشارة إلى أن تمكين فرعون من ذلك كان اختبارا من الله تعالى حتى يمتحنوا بالنقمة، وتصقل نفوسهم بها.

وإنى أرى أن الأول أوضح، والله تعالى أعلم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾.

﴿تَأَذَّنَ﴾ بمعنى آذن وأعلم، ولفظ ﴿تَأَذَّنَ﴾ يدل على المبالغة فى الإعلام، وتكرره آنا بعد آن، وشكر النعمة أداؤها فيما خلقت له، فشكر نعمة الأذن ألا يسمع إلى منكر، وشكر نعمة اللسان ألا ينطق إلا بالحق، وشكر نعمة العقل ألا يذعن إلا للحق ولا يفكر إلا فى الوصول إلى الحق والإيمان بالتوحيد، والإنسان مغمور فى نعم من لسان ينطق وأذن تسمع، وعين تبصر وجوارح تكسب، وكل نعمة لها شكرها، فإن شكر زادها الله تعالى.

وكفر النعمة ألا يتخذها فى طاعة، فكفر ذى المال بإنفاقه فى غير حله، والاستعلاء به وبطر العيش، وأن يطغى إذا استغنى.

ولقد قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ هذا شرط مؤكد بالقسم، والجواب ﴿لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ جواب القسم ودل على جواب الشرط، واللام موطئة للقسم، وكان الجواب مؤكدا بنون التوكيد الثقيلة، وكذلك فى قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ

﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ هذا لأن الشكر جواب القسم، وهو دليل على الجواب، وليس نصا فيه لأن الجواب بمدلول الله، ولكن إن كفرتم لأعذبنكم، إن عذابى لشديد، والمعنى إن شكرتم أجرتم لا محالة، وزادكم الله نعمة، وإن كفرتم منعتم وعوقبتم، وإن الله تعالى شديد شدة بالغة الغاية.

وإن هذا يدل على أن الطاعة تعود عائدتها على من قام بها؛ لأن شكر المنعم، وشكر النعمة يزيدها، وإن كفر النعمة معه عذاب أليم، والله غنى عن العباد؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾.

صرح الله سبحانه بأن ذلك القول من موسى لقومه، ولم يصرح بأن قوله ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ فاحتمل أن يكون الكلام منسوبا لموسى، أو هو من كلام الله رأسا، والأذان هو ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ إلى آخر الآية، وسواء أكان الكلام منسوبا لموسى، أم إلى الله، فالإيذان بالزيادة فى الشكر والعذاب فى الكفر من الله، أما الكلام فى هذه الآية فمنسوب لموسى قال لقومه من بنى إسرائيل، أو هم وغيرهم.

وفى هذا النص ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فيه بيان أن الشكر والكفر مغبتهما تعود على الناس والثقلين جميعا، ولا تعود على الله تعالى فى شيء؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وهذا ينبئ عن جواب الشرط، والمعنى إن يكفر الناس والثقلان فإن الله لا يضيره شيء، ولا ينقص من ملكه، إن الله لغنى حميد، أى لا يحتاج إلى عباده وهو حميد، أى محمود من الملائكة، ولقد قال البيضاوى فى تفسير كلمة ﴿حَمِيدٌ﴾: «مستحق للحمد فى ذاته، محمود تحمده الملائكة وتنطق بنعمه كل المخلوقات، فما ضررتم بالكفر إلا أنفسكم حيث حرمتموها مزيد الإنعام وعرضتموها للعذاب الشديد»[1].

---

(١) تفسير البيضاوى: ٣/ ٣٦٨.

روى مسلم عن أبى ذر الغفارى عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئًا، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»(١).

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)﴾.

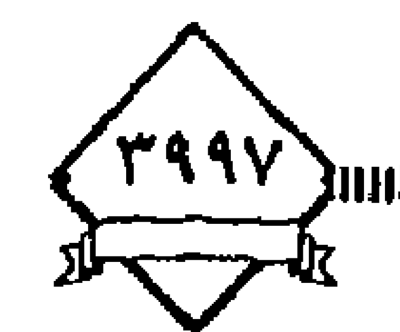
الاستفهام هذا للإنكار بمعنى نفى الوقوع فهو للنفى جاء على صورة الاستفهام تأكيدا للنفى كأنهم سئلوا فأجابوا بالنفى، وهو داخل على النفى، فنفى النفى إثبات، فمعنى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ...﴾ إلخ، قد جاءكم نبأ الذين من قبلكم قوم... والنبأ الخبر الخطير الشأن.

وقد قال ابن جرير: «إن هذا الكلام على لسان موسى لقومه بنى إسرائيل وأهل مصر»، ولكن رد ذلك القول ابن كثير فى تفسيره، ونحن معه؛ لأنه لا دليل على نسبته إلى موسى عليه السلام؛ ولأن فائدته فى جعله عاما أوفى من حيث المعنى؛ ولأن روح الآية تجعل الخطاب لمن يتلو القرآن من مشركى العرب وغيرهم.

و«النبأ» الخبر الخطير الشأن، وقد كان خبر قوم نوح خطير الشأن، وكذلك عاد وثمود؛ لأنها أخبار بهلاك أمم وجماعات بسبب خروجهم عن أمر ربهم.

---

(١) رواه مسلم: البر والصلة والآداب- تحريم الظلم(٤٦٧٤). من حديث أبى ذر رضى الله عنه، كما رواه الترمذى، وأحمد، وابن ماجه، والدارمى، وقد سبق تخريجه.



والمعنى فى الجملة: قد أتاكم الخبر الخطير الشأن قوم نوح إلى آخره، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ ومن هم الذين من بعد هؤلاء، ولا يعلم مآلهم إلا الله تعالى.

أحسب أن المراد بهم أمة محمد ﷺ الذين كفروا برسالته، ويعاندون فيها، ويؤذون المؤمنين، ويسفهون قول الرسول ﷺ، ويصرون على عبادة الأوثان.

ويكون قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ تهديد لهم، وحمل لهم على المقايسة بينهم وبين غيرهم، فإذا كان نبأ الغابرين هلاكهم، فليقيسوا حالهم على حال أولئك الغابرين.

وقد حكى سبحانه ما كان بين الرسل السابقين وأقوامهم، فقال عز من قائل: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أى بالأدلة المبينة الهادية المرشدة التى لا يدخلها امتراء فلم يجيبوا. وعبر الله سبحانه وتعالى عن امتناعهم عن الإيمان بقوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ كانت حالهم تجيب بأن ردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا....

وقد تكلم الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فذكر عدة احتمالات مجازية لمعنى هذا التعبير القرآنى الكريم ولم يعين واحدا، فقال: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ يعضوها غيظا وضجرا مما جاء به الرسل، كقوله تعالى: ﴿... عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ... (١١٩)﴾ [آل عمران]، أو ضحكا واستهزاء، كمن غلب عليه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ وهذا قول قوى، أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء أطبقوا أفواهكم وأسكتوا، أو ردوها فى أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدى جمع يد، وهى النعمة بمعنى الأيادى أى ردوا نعم الأنبياء التى هى أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات فى أفواههم؛ لأنهم إذا

كذبوها، ولم يقبلوها فكأنهم ردوها فى أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل»[١].

هذه احتمالات مختلفة لم يعين واحدا منها للدلالة فى الآية الكريمة، وإن كان وصف القول الثالث بأنه قوى، وإنا نرى أن وضع اليد فى الفم يكون عندما يلقى إلى الشخص خبر مستغرب، فالتعبير الكريم كناية عن استغرابهم الخبر، وإن كان لنا أن نختار من احتمالات الزمخشرى، فهو قوله عضوا أناملهم من الغيظ، ولكنا مع ذلك نرى أنه كناية عن استغرابهم.

عرض لهم استغراب قول رسلهم أولاً، ثم انتهى الاستغراب بالإنكار، والكفر ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ انتهى استغرابهم بالإنكار بكونهم رسلا، فالكفر بالرسالة أما موضوعها وهو ما يدعونهم إليه من توحيد وشرائع، فقد قالوا فيه: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ومريب معناه موقع فى الريب، من أرابه أو أوجد عنده قلقا، أى أنهم يرتابون فى دعوى التوحيد، وأنها تجعلهم فى قلق بالنسبة لآلهتهم التى ورثوا عبادتها عن آبائهم، فدعوة التوحيد تخرجهم من الاطمئنان إلى الباطل إلى الشك والريب، فدعهم فى ريبهم يترددون.

إجابة رسلهم

قال تعالى:

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا

---

(١) الكشاف: ٢/ ٣٦٨.

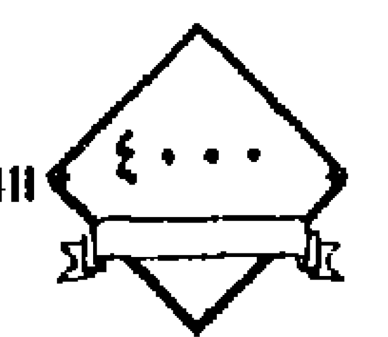
﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾

جاء النور على المشركين كالضوء الساطع على من يكون فى ظلام دامس، فلا تقوى عينه على النظر وتضطرب وترتاب، فقالوا: ﴿إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، فهذه حيرة من يكون فى ظلمة حالكة فيلاقى ضوءاً شديداً.

وقد كانت مجاوبة بين الرسل وأقوامهم، وهذه المجاوبة صورة واضحة متحدة فى كل الخلاف بين الشرك والإيمان أو بين الرسالة الإلهية ومن ينكرونها، ولم تكن هذه المجاوبة بين رسول بعينه، وقوم بأعيانهم، بل هى صورة عامة جامعة متحدة، وإليك المجاوبة:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الاستفهام إنكارى توبيخى لإنكار الواقع، فقد وقع الشك منهم كما تدل الآية السابقة، وهو حيرة أهل الظلام إذا رأوا النور تحيروا بين باطل ألفوه، وحق جاء إليهم هاديا فارتابوا.

وقدم الجار والمجرور ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ لأهمية الشك فى الله أو لغرابة أن يكون ثمة شك فى الله تعالى، وهو الذى فطر السموات والأرض، أنشأهما إنشاء، وفطرهما فطرا، أيكون فى وجوده شك، وقد قامت الأدلة وتوافرت البراهين من الوجود بكل أطرافه.



هذا عجب عجاب من الشك فى الله سبحانه وتعالى، وهناك عجب من الشك فيما يدعو إليه الرسل، إنهم يدعون إلى أمر نافع فى ذاته لا يسوغ للعاقل أن يتشكك فيه أو يرتاب، وقال تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وهنا أسندت الدعوة إلى الله تعالى لتربية المهابة فى نفوسهم، ولتكون النسبة إليه بيانا لوجوده، ورقابته لهم ولأعمالهم وإشعارا لهم بالهيمنة عليهم، وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، ﴿مِّن﴾ هنا إما أن تكون بيانية، ويكون المعنى (ليغفر لكم ذنوبكم) وتكون للدلالة على استغراق الغفران لكل الذنوب إذا آمنوا، فإن الإسلام يجب ما قبله كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ... (٣٨)﴾ [الأنفال]، وإما أن تكون للتبعيض، أى (ليغفر لكم بعض ذنوبكم)، وهو ما يتعلق بالشرك ونحوه، أما ما يتعلق بالمظالم فإنه لا يغفر إلا أن يعفوا أصحابه.

وعندى أن تخريج القول الكريم على أنها بيانية أولى بالأخذ أولا، لأن جَبَّ الإسلام لما قبله عام غير خاص بذنب دون ذنب، وإذا كان الشرك قد غفر فما دونه أولى. وثانيا، لأنه كان من المشركين من قتلوا وسفكوا فغفر الله لهم ذلك، وحسبك أن الله غفر لوحشى قاتل حمزة، وثالثا: لأن النبى ﷺ صرح بأن كل دم فى الجاهلية موضوع، وبأن ربا الجاهلية موضوع[1].

وقد ذكر سبحانه أنه يؤخرهم إلى أجل مسمى، وبعده يكون البعث، وفى هذا إنذار لهم إن استمروا فى ضلالهم يعمهون.

هذا كلام الرسل، فبماذا أجابوا؟.

أجاب المشركون بتصوير القرآن ذاكرا الإجابة التى اتحدوا فيها على اختلاف قرونهم ليبين للنبى ﷺ ألا يضيق صدرا بما يجادل به مشركو مكة، فهو حال

---

(١) صرح به فى خطبة الوداع، وهى خطبة طويلة، أخرجها مسلم: الحج ـ حجة النبى ﷺ (٢١٣٧) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه.


محمد أبو زهرة
الإمام الجليل
الإمام الشيخ محمد أبو زهرة غنى
عن التعريف، فقد أثرى المكتبة العربية